وزارة الثقافة

الحياة بعد الموت

إسكندر الخوري البيتجالي

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

الحياة بعد الموت

تأليف: إسكندر الخوري البيتجالي

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٢٠

عن دير الروم الأرثوذكس في القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: إسكندر الخوري البيتجالي
اسم الكتاب: الحياة بعد الموت
الطبعة الأولى: ١٩٢٠ عن مطبعة دير الروم الأرثوذكس في القدس

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق:حنين خالد عِناية
صف وتنضديد: شادية الخطيب
تصميم الغلاف: فاطمة حسين

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

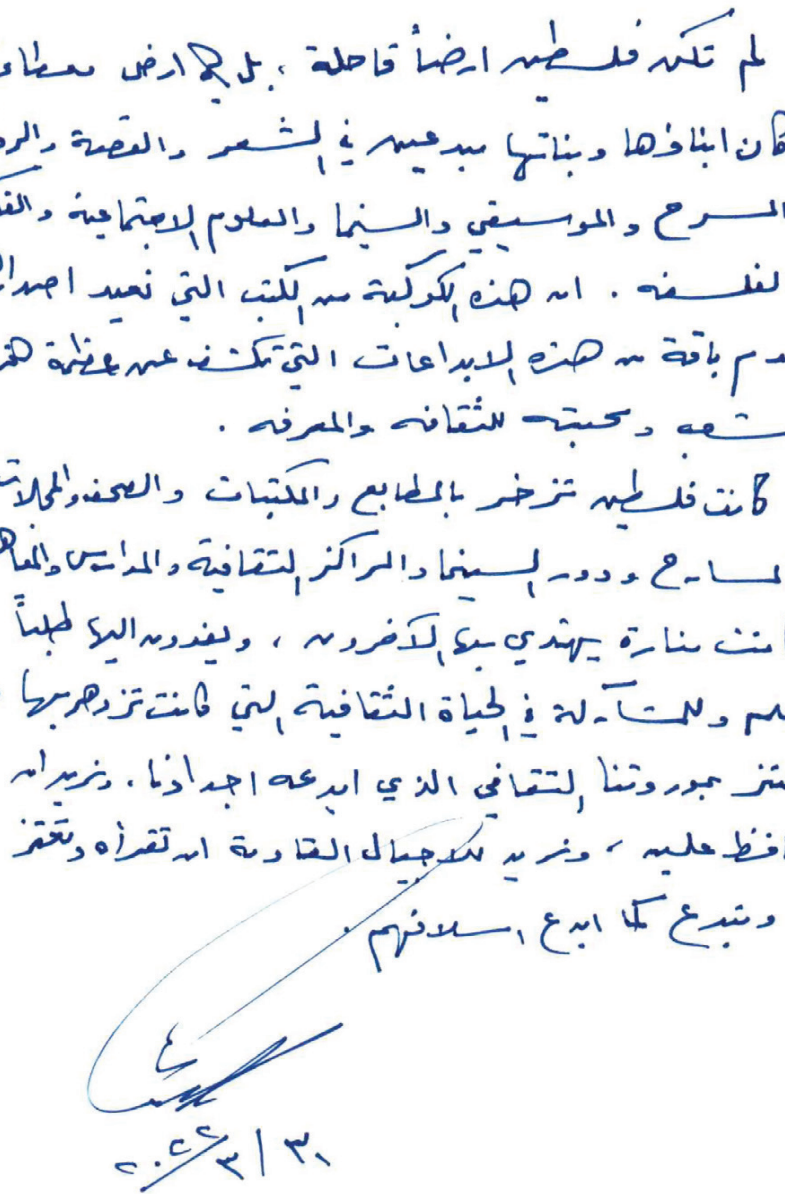

الحياة بعد الموت

تمهيد

•••

الروايـة التـي أزفهـا اليـوم إلى قـراء اللغـة العربيـة روايـة أدبيـة تاريخيـة اجتماعيـة وقعـت معظـم حوادثهـا أثنـاء الحـرب العموميـة.

وهـي تتضمـن أعظـم مـا انتـاب هـذه البـلاد مـن المصائـب عـلى إثـر إشـهار أعظـم حـرب انتشـبت في العـالم ومـا ركبتـه الحكومـة البائـدة مـن الشـطط في معاملـة رعاياهـا سـيما العـرب؛ الأمـة التـي يجلهـا التاريـخ، وتنفيـذ حكـم الإعـدام عـلى نخبـة رجـال الأمـة السـورية، ومـا تـلا ذلـك مـن إعـلان الثـورة في الجزيـرة العربيـة ومـا دار مـن المعـارك الدمويـة بـين جيـوش الحلفـاء ودول الاتفـاق عـلى أبـواب الدردنيـل وفي ميادينـ فلـم طـين حتـى دخـول القائـد الكبـير الجـنرال اللنبـي القـدس.

ويـرى القـارئ في هـذا الكتـاب الـذي عانيـت في تسـطيره من التعب والمشـقة مـا عانيـت في صـورة مصغـرة لمـا جنتـه هـذه الحـرب عـلى العـالم أجمـع ومـا جنتـه عـلى رؤوس العائـلات مـن المظـالم والويـلات ومثـالًا لفسـاد المـرأة بفسـاد بعـض القوانـين والعـادات فيقـف عـلى أمانـة الواحـدة وخيانـة تلـك وشـقاء حـظ الأخـرى، وإبـاء رجـال وخساسـة آخريـن، بطريقـة في التأليـف حديثـة، ووصـف جميـل، وأسـلوب مسـتعذب.

أنـا لـولا ظلـم هـذي الكائنـات بعضهـا بعضـا لأطربت الحياة

أنـا لـولا وطـنٌ أحببتـهُ وبـلادٌ تُفتـدى بالمهجـات

مـا رأيـتُ العيـش إلا فضلـة ولفضَّلـت عـلى العيـش الممات

القسم الأوّل

...

الفصل الأوّل

(الصبية النائمة والفتى الساهر)

•••

لو كنت ممن استعصى عليهم النوم ليلة الأحد، اليوم العاشر من شهر نيسان سنة ١٩١٥ وأدركك أرق شديد وخرجت إلى أحد شوارع المدينة المقدسة المسمى باب الخليل وصعدت في الطريق المؤدي إلى يافا وقد تجاوزت العمارة الروسية، لأشرفت على أنقاض خراب قام في وسطها منزل جمع في شكله بين طلاء البؤس، وتقادم العهد.

ولو أُتيح لك العلم بالغيب أو تمكنت من أن تخرق بنظرك جدران المنزل لرأيت غرفة ينيرها ضوءٌ مريض الفتيلة ضئيل النور، ذات سقف مسنم، قام عند مدخلها سرير اضطجعت عليه صبية خبأت شعر رأسها الذهبي كما يخبئ العصفور رأسه تحت جناحيه كأنها تحلم وقتئذ بسعادة لم تكن لتحلم بها في اليقظة.

وإلى جانب السرير فتى لا يزال في مقتبل العمر أسود الشعر جميل الصورة، يضرب لونه إلى الصفرة، جلس وقد دعم رأسه بأنامله يتأمل تلك المرأة النائمة ويتفرس في وجه تلك الصبية ساكنا هادئا في سهره كسكونها وهدوئها في نومها. وقد دلّ هذا التأمل على شيء مفجع يطارد فكرًا مؤلمًا نزل برأسه أو تصور مخيف أدركه على الأثر. إنه لم يقم ساعتئذ دليل على أن هذه الصبية كانت مريضة تغالب كيد الحمى. كلا بل إن هدوّ نومها كان دليلاً على حسن صحتها وسلامة جسمها من الألم. لا بد أن يكون الألم روحي والتوجع داخلي.

لم تكن تشتمل تلك الغرفة الحقيرة من الأشياء إلَّا على كل ما يبعث على الحزن ويشتم منه رائحة الفقر: سقف انتشرت في وسطه بقع قاتمة صفراء لتخلل ماء الشتاء حجارته، وستائر كلح لونها قامت فوق نافذة لم تدخلها أشعة الشمس إلا نادرًا ولم يتعهدها الهواء إلا رطبًا. وحشية طرحت فوق السرير وخلقة كانت لها غطاء، وكرسي كاد القدم ينزع أحشاءه، ومائدة ظَهَرَ تأثير البوس على أخشابها، فوقها شمعدان أرسلت شمعته على جوانبه شباكًا من دموع أسالها اللهيب، وحواليه صحون حالت بوادر النعاس دون تنظيفها على إثر وقعة المساء، وكأسان معتمان وقمقمة كنت ترى الماء فيها تارة سائلًا وأخرى جليدًا، ووزهريتان كاد يجف طينهما ويذبل زهرهما قامتا في زاويتي الغرفة وقد زُرع في إحداهما زهرة: اذكريني، وفي الأخرى لا تنسني، وذلك دليل على أن الناس حتى في وسط البؤس والشقاء يبحثون عن شيء تبعث به السماء لتشكوه آلامها أو تسارّه بآمالها أو تعترف له بندامتها.

قضي ذلك الرجل نهبًا للهواجس لا ينزل النوم بأهداب عينيه ساعتين من الزمن، ومن يدري ماذا كان يمر برأسه وينزل منذ أول الليل من الأفكار المحزنة والتصورات الممضة، وكم من أماني وآمال في مستقبله استلها اليأس من قلبه فتناثرت أمامه كما كان يتناثر من عينيه دمعٌ لم يقو على إيقافه، وقد خرج به فرط التأمل عن حد الشعور وعلى وجهه سطور من العبوسة رسمتها يد الحزن الذي كان يجول في نفسه.

جلس ذلك الرجل جاثمًا إلى جانب ذلك السرير كأنه مجرم يحاسب نفسه أمام محكمة الضمير، أو عابد رفع عينيه للصلاة، ومن رآه على

تلك الحال لا يعتم أن يقول: شقيٌّ هذا الرجل، إنه يتألم وسيتألم أيضًا!

الهدوء خارج البيت سائد كما في داخله، والطبيعة سائرة على ما هي عليه من السكوت الذي هو سبب عظمتها، إلى أن دقت ساعة دير الفرنسيسكان الواحدة، فاهتزّ الشاب لهذا الصوت الذي قاطع أفكاره وعكر عليه سكونه، وما كاد ارتجاج تلك الضربة عند طرقها ذرات الهواء يضمحل ويزول حتى نهض الشاب مخرسًا صوت أقدامه، ومعلقًا أنفاسه، وجعل يمشي على أطراف أصابعه نحو المائدة وجلس؛ وإنه ليعود ويلتفت إلى تلك المرأة النائمة مجيلًا نظره فيها حينا، ثم أخذ القلم وشرع يكتب ما يأتي:

بينا أنا أسهر وأكتب، أنت ترقدين يا ملاكي التعيس؛ لأن الله الذي لا يزال يحبك يضن عليك بما يجعلك عرضة للتصورات المحزنة ولم يضن عليك بالآمال الحيية، كوني إذن هكذا عظيمة وخاضعة أمام إرادة الله، تلك الإرادة التي تملي عليّ ما أكتب وتوحي لي ما أنا فاعله.

«أنت تعلمين إذا كنت أحبك يا أديل أم لا. أنت تعلمين إذا ما كنت منذ عدلتِ عن أن تكوني خطيبتي لتصيري زوجتي أبحث عن شيء سوى سعادتك في الحاضر وفي المستقبل. أنت تعلمين أني ما شعرت بفرح أعظم من ذلك اليوم الذي أتى فيه إلى العالم طفلنا الذي قضي عليه أن يتألم على هذه الأرض والذي رُئِيَ الله له ودعاه إليه، وهو الذي يجمعنا اليوم بقبره، كما كان يجمعنا بمهده. أنت تعلمين أخيرًا إذا ما كنت عند حلول المصيبة أهب بكل ما في الرجل من القوة لرد غارة ذاك الذي كنت إخاله صدفة وما هو في الحقيقة إلا حظ أحمق

وطالع نحس لا مهرب منه. والآن! هأنذا اليوم قد استنفدت آخر ما عندي من تقوى، هو ذا جسمي يتململ تحت نير بلوى خبيثة، وإني لمعيد لله هذه الحياة التي حببتِها إليّ كما لو كانت نعمة، والتي جعلتني أطرحها عني كما لو كانت حملًا.

«بينا أنا أسعى لهدم مستقبلي أهجس في ماضي أيضًا، فأرى ذلك العهد الذي فيه أرسل الله جمالك لي ليفتنني، وحبك ليذيبني، أتذكر ذلك الوقت يوم كنا نجتمع وحدنا لنصوغ أحلامًا لم يكن ليحققها إلا ذلك السر المقدس «سر الزَّواج» أحلامًا ستتبدد اليوم إلى الأبد.

مسكينة أنت يا ملاكي! أتذكرين محادثاتنا الطويلة بالقرب من أمي النائمة الآن نومها الأبدي، الذي سأنامه عن قريب، ولكن كيف؟ هي استقبلت الموت بلا خوف وقضت حياتها بلا تقريع. لو كان عليّ بأن أتعذب وحدي ولم تتصل بحياتي حياة أخرى نقية طاهرة، ربما أوجدها الله لتوبيخي، حياة تقاسمني الآن نصف هذه الكفارة بلا ذنب ولا إثم، لوددت أن أعيش أكثر، ولكن أنت يا أديل صبية جميلة، غنية بخيالات المستقبل والحب، مخلوقة لعالم كان عليك أن تتركيه بعد أن كدت تعرفينه، أنت تتعذبين بالرغم عما تظهرين من الرضا، بالرغم عن وجهك الضاحك أنت تبكين وهذه هي ساعة الألم والدموع العاملة على أَرَقِي وسهادي، والتي قادتني إلى حيث أنا كائن، أنا أعلم أن بؤسنا سبب لك هوانًا، أنا أعلم أنه عندما كنت أسعى وراء شغل أحصل من ورائه ولو على خبز نتبلغ به، أنا أعلم أنهم اقترحوا عليك أسئلة عار وفضيحة كتمتها عني لتذخزيني من ألم أعظم. والآن اسمعي

يـا أديـل، يـا ولـدي الحبيـب، إننـي مائـت، سـعادتك هـي مـوتي. لا تبـكي كـوني شـجاعة. أنـا متـى مـت تقدريـن عـلى الأقـل أن تكـوني سـعيدة. سـوف تجديـن نفسًـا شريفـة تفهمـك وسـوف تعتاضـين مـن اسـم ارملـة باسـم آخـر يصـيرك غنيـة ومحترمـة. أنـا مائـت لا محالـة أنـا لا أنتحـر كمجنـون. أنـا لا أسـلم نفـسي كجنـدي فـار، ولكـن سـأذهب إلى أحـد ميادين هـذه الحـرب الكـبرى الناشـبة كمتطـوع، وسـأدخل في الحـرب كرجـل غيـور متهـوس يضحـي كنـز حياتـه في سـبيل الـذود عـن حـوض الوطـن، وهنـاك بـين هزيـم المدافـع ولعلعـة السـيوف، سـأقع قتيـلا وربمـا قاتـلًا أيضًـا، هنالـك عنـد قعقعـة نفـسي في ظـل حشرجـة صـدري سـيقول النـاس عنـي عندمـا يسـمعون بقتـلي أشـياء كثـيرة؛ إنهـم سـيقولون: لم يدفعـه لذلـك غـيرة وطنيـة، إنـه ابتـدأ حياتـه بالفسـق والفجـور وانتهـى بهـا بكـره الحيـاة وتـرك زوجتـه الصبيـة. أنـت تعلمـين الحقيقـة يـا أديـل، مـري بلغوهـم مـر الكـرام ولا تنـسي أن تحفظـي لي في أعـماق فـؤادك صـلاة تتلينهـا كل صبـاح ومسـاء، حتـى إذا مـا وقعـت بـين يـدي الديـان العظيـم ليعاقبنـي عـلى جريمتـي هـذه لا أعـود كـما قـال شكسـبير أشـعر بتقريـع ضمـير وأشـك في عدالتـه تعـالى عندهـا أسـمعك تصلـين.

«البارحـة ذهبـت متخفيًـا خشـية أن يـراني أحـد مـن أولئـك الذيـن لاهـم لهـم إلا القبـض عـلى كل فـار، لأتـزود بنظـرة مـن قـبر ولدنـا المختبـئ خلـف أوراق نيسـان الجديـدة، والنائـم كعـشٍّ تحـت ظـل الشـمس. لـو كان الفصـل شـتاء لمـا أقدمـت عـلى القيـام بمـا عزمـت عليـه، غـير أن كل مـا في الطبيعـة كان هادئًـا، وأقـول والفـرح يخالـج فـؤادي إن نفـسي قـد شـعرت في ذلـك الملجـأ المقـدس حيـث نسـيت هـذا العـالم؛ عـالم الدمـع والشـقاء الـذي لم

يكـن يفصلنـي عنـه إلا بضعـة قبـور، بحاجـة إلى المـوت؛ أعنـي إلى الراحـة. لقـد صليـت طويـلًا، ولـو كان النـاس يعلمـون مـا يوجـد مـن التعزيـة في الصـلاة مـع المـوتى ومـا يقولـه اللـه عـلى لسـان القـبر لكانـوا إلى المقـبرة حملـوا أحزانهـم. ثـم مشـيت مودعًـا قـبر ولدنـا نحـو قـبر أمـي. مسـكينة أمـي، مـا كان أعقنـا نحوهـا أثنـاء أفراحنـا. ومـا أعظـم كفرنـا بهـا في غضـون أحزاننـا. لقـد نسـينا هـذا القـبر الـذي غطـاه الثلـج في هـذا الشـتاء والـذي أبى اللـه الـكلي الصـلاح إلا أن يذيبـه وأن ينبـت عوضًـا عنـه أزهـارًا جميلـة ويظللـه بهـذه الأوراق الجديـدة الكاسـية الأشـجار، ناثـرة الظـل ومقطـرة أشـعة الشـمس عـلى القـبر؛ هـذا القـبر الضاحـك الآن كأنـه مهـد، نعـم القـبر مهـدٌ سـماوي أيضًـا.

«أنـا عندمـا أمـوت لا أطلـب إليـك شـيئًا تؤدينـه نحـوي؛ لأنـك إذ ذاك تكونـين جاهلـة موضـع الحفـرة التـي سـأطرح فيهـا، ولربمـا لا أدفـن بـل أظـل في المعركـة جثـة هامـدة تنهشـها الجـوارح وتعركهـا السـباع. إنمـا عليـك فقـط أن تعتنـي بهذيـن القبريـن أليـس هكـذا؟ فتأتـين إليهـما في وقـت سرورك لتلقـي عليهـا الزهـور. وفي وقـت حزنـك لتسـأليهما التعزيـة». ومـا كاد الفتـى ينتهـي مـن كتابـة الأسـطر الأخـيرة حتـى اغرورقـت عينـاه بدمـع تزاحـم عـلى الخـروج، فـما عتـم أن رفـع يديـه نحـو وجهـه ليخمـد نـيران زفـرات حـارة كادت تخنقـه خشـية أن توقـظ امرأتـه النائمـة. غـير أن هـذه المحادثـة القلبيـة التـي أبثهـا عـلى القرطـاس والتـي سـتكون ذكـرى حياتـه الأخـيرة بـل مـيراث أرملتـه الوحيـد قـد أعقبهـا بإطـراق مـلي وتفكـر عميـق.

وضربت الساعة في الخارج الواحدة والنصف، فحول الشاب للحال رأسه نحو السرير وأخذ القلم واستطرد كتابه ما يأتي:

«كوني مطمئنة يا ولدي. لا بد من الملتقى. نعم، سوف لا يتسنى لك بالرغم عن حبك وإخلاصك معرفة الحفرة التي ستلقى جثتي فيها، فصلي إذن يا ملاكي التعيس وصلاتك سوف تجد نفسي.

«الوداع يا حبيبتي! أعانقك للمرة الأخيرة يا أديل! الوداع! وربما إلى الملتقى!».

«نجيب»

نهض نجيب عن متعده وفتح علبة أخرج منها مسدسًا شده إلى جنبه بحركة حملت زوجته بالرغم عما أبدى فيها من الخفة والرشاقة على التململ فوق السرير. فانتفض للحال كالعصفور بلله القطر، بيد أن هذه الحركة ما كانت إلا حلمًا مَرَّ في منام أديل.

فقال نجيب في نفسه: أريد مع ذلك أن أعانقها. فاقترب من السرير، ولكنه ما لبث حين هم بوضع شفتيه على جبينها حتى توقف خشية أن يوقظها فاكتفي بالتأمل فيها متنشقًا نسمات فمها المداعبة وجهه. وكان باديًا على أديل أثناء نومها هدوء جعل نجيبًا يشك في همومه وينسى ما عزم عليه، وإنه ليتبين ما حوله بعينيه فيثوب إليه ذلك العزم ويبعد عن ذلك المضجع الشقي متمتمًا بين شفتيه وقائلًا: لا بد من إنجاز الأمر.

وبعد أن انتهى من هندامه برباطة جأش ما عليها من مزيد، مشي نحو المائدة بقدم مطمئنة وطوى الكتاب ثم جثا أمام السرير حيث قبل غطاءه كما يقبل الكاهن غطاء المذبح، ومر حاملًا المصباح بيده الواحدة، وبالأخرى أشياءه إلى غرفة أخرى صغيرة ملاصقة للأولى، ثم أغلق الباب خلفه ووضع المصباح على أسكفة النافذة حتى كاد يلامس الزجاج.

وإنه ليقول في نفسه: سأتمكن بهذه الوساطة من رؤية النافذة حتى أغيب عنها.

وألقى أذنه على غلق باب الغرفة المعدة للنوم ولما لم يسمع حركة، يمم الباب المؤدي إلى الشارع وخرج محكمًا أطيافه وراءه.

حينئذ مر بالجهة الأخرى من الشارع ورفع رأسه ورأى النافذة مشرقة. وكان كلما مشى خطوة يتبع بعينيه هذه الشمعة المريضة التي أصبحت نجمته. وما هي إلا لحظة حتى غاب عنها ولم يعد يراها. فتوقف آنئذ وعاد على أعقابه ورمقها بنظرة للمرة الأخيرة ثم استطرد سيره.

في ذلك الوقت دقت ساعة الفرنسيسكان الثانية بعد نصف الليل.

الفصل الثاني
(وعنـد صفو الليالي يحدث الكدر)

•••

لم يشـأ نجيـب أن يـدون في كتابـه بعـض تـذكارات محزنـة كانـت تمـرّ في صـدره لأن زوجتـه كانـت أكـثر إلمامًـا بهـا منـه، فرأيـا مـن العبـث تكرارهـا لهـا في تلـك السـاعة الأخـيرة.

كانـت تلـك الصبيـة التعيسـة تمـرّ بمـا كان يمـر بـه فكـر زوجهـا في سـاعات ضجـره وقنوطـه، وكثـيرًا مـا تصـورت لهـا فكـرة المـوت، غـير أنهـا كانـت تنبذهـا وتهيـب بهـا قائلـة في نفسـها: «إنـه يحبنـي كثـيرًا فكيـف أتركـه» فتعـود إذ ذاك وترضـخ لمـا يريـده اللـه. وكـما يظهـر أن نجيبًـا لم يكـن يتصـور المـوت عـلى الأسـلوب الـذي كانـت تتصـوره زوجتـه لـه، وأنـه شـارع في تنفيـذ مـا عـزم عليـه بتضحيـة في سـبيل سـعادة زوجتـه فقـد أظهـر بذلـك طاعـة عميـاء لأنانيتـه.

مهـما اشـتد ذكاء الرجـل فإنـه لا يـزال يجهـل بعـض مواطـن الإخـلاص الغريزيـة في المـرأة.

عندمـا كان اليـأس يسـتولي عـلى أديـل، وعـلى إثـر شـعورها بالجـوع أحيانًـا، كانـت تسـتعذب فكـرة المـوت والتخلـص مـن هـذه الحيـاة المملـة، غـير أنهـا لم تكـن تتصـور الحيـاة إلا كحبهـا مشـتركة بينهـا وبـين نجيـب، فكانـت عندمـا تداعـب بعينيهـا العذبتـين، الحزينتـين غالبًـا والمخلصتـين دائمًـا عينـي زوجهـا، محاولـة إغراءهـما؛ لإدراك مكنونـات نفسـها، لم يكـن نجيـب ليقـرأ فيهـا غـير آيـات الحـب فيضمهـا إلى صـدره مجلسًـا إياهـا عـلى ركبتيـه

ضاحـكًا باكيًـا معهـا، وإن أديـل لتقـول حينئـذ في نفسـها: «مـا دام لا يتـألم فلندعـه يتأمـل!».

أمـا وقـد آن لنـا أن نسـطر للقـارئ تاريـخ هـذا الشـاب: كان نجيـب من أسرة شريفـة، متوسـطة الحـال، وكان أبـوه يحـترف تجـارة الأيقونـات والسـبج، وهـي حرفـة انتـشرت في القـدس انتشـار القطـا، وأصبحـت ضالـة أهاليهـا المنشـودة لمـا كانـت تـدر عليهـم مـن المكاسـب في أيـام المواسـم والأعيـاد؛ ولكـثرة مـا كان يـؤم فلسـطين مـن السـياح والحجـاج للتـبرك مـن أماكنهـا المقدسـة. وكانـت لـه أم مـن فضليـات النسـاء، أتـت بـه إلى العـالم دون أن تثنـي، فأصبـح مركـز دائـرة والديـه وأمنيتهـما الوحيـدة، ولمـا يفـع أو كاد، أراد والـده أن يورثـه حرفتـه المذكـورة كـما هـي العـادة في الـشرق، يـورث الآبـاء الأبنـاء حرفهـم دون أن ينظـروا إلى اسـتعدادهم وميلهـم، غـير أن أمـه نظـرًا لمـا كان لهـا مـن الميـل إلى المطالعـة الأدبيـة أثنـاء تفرُّغهـا مـن أشـغالها البيتيـة، شـعرت بلـذة العلـم والـدرس، ورأت أن هـذه الخدمـة وحدهـا ليسـت بحرفـة حيـة توجـد للعـالم إنسـانًا راقيًـا يسـعد نفسـه وآخريـن معـه سـعادة حقيقيـة فحدثـت والـده بإدخالـه إحـدى المـدارس لتلقـي مبـادئ العلـوم، فـما كان منـه إلا أن صـدع بقولهـا بالرغـم مـن عـدم ميلـه للعلـم.

واتفـق أنـه في سـنة ١٩١٢ لم يـأت السـياح والحجـاج ولا سـيما الروسـيون منهـم إلى القـدس بسـبب الحـرب وقتئـذ بـين دويـلات البلقـان والدولـة العثمانيـة، فوقفـت الحركـة شـأن كل بلـد ريعهـا مـن أماكنهـا المقدسـة، وأصبـح الأهلـون يشـكون سـوء الحـال ووقـوف الأشـغال، ولمـا كان والـد نجيـب ممـن يعيشـون بقلوبهـم أكـثر منهـم بعقولهـم بلـغ منـه الكـدر

مبلغًا أورثه حمى خبيثة ذهبت بحياته. فقضى نحبه مخلفًا لامرأته بضاعة الأيقونات والسبج التي عجلت عليه حينه، وذلك البيت الصغير الذي ذكره نجيب في كتابه لأديل متذكرًا فيه لهوه وصباه، ورأت الأم أن ليس لها من ذويها كاسب، فاحتاطت لنفسها بأن عرضت تلك الأيقونات والسبج للبيع فكان لها من ورائها مائتين ذهبًا فرنسيًّا، وضعتها عند تاجر حلبي بالقدس، اسمه نجيب التاجر، بمقابل من الربح زهيد ليكون لها ولولدها عونًا على الحوادث والطوارئ.

ومرَّت الأيام تتلوها الشهور والأعوام ونجيب في المدرسة يرشف العلوم خاطيًا الخطوات الواسعة في معراج المعارف وبذور العواطف، والأميال تنبت في صدره يومًا فيومًا. وكان خلال العطلة المدرسية يعيش معيشة كل شاب في ربيع الحياة يميل إلى اللهو والحرية حافظًا مع ذلك لأمه في أعماق صدره حبًّا مقدسًا.

واتفق ذات يوم أثناء لهوه وطربه بصباه أن فتاة فقيرة جميلة اسمها أديل تمثل العفة بأسمى معانيها قد تبدت لعينيه، فإذا هي جارة له تسكن مع عمتها في بيت مجاور لبيته، وقد قلب الدهر وهو أبو العبر والغير لأهلها ظهر المجن، فتوفي أبواها غير مخلفين لها ميراثًا غير جمالها وعفة ذيلها. وإنها لتسطو عليه لأول وهلة وتسلبه لبه فيصبح كلفًا بها، بالرغم من القائلين أن الحب لا يتولد إلا مع طول المحادثة والمعاشرة فصار يأتي بها عند أمه أولًا كجارة وثانيًا كرفيقة، آخذا إياها بيده، فتحس هي عند ملامسة الأكف بعاطفة غريبة جديدة أشبه شيء بالفكر الشعري عند تكوينه في مخيلة الشاعر.

وكان نجيب ينتهز من الأعياد فرصة ويخرج من المدرسة ليطفئ نيران أشواق ذكت في قلبه بكلمة يسرها في أذنها مؤداها «أحبك».

وعندما كان يودعها ليعود إلى مقاعد صفه في المدرسة يشت ذهنه، ويطيش سهمه، ويجلس باهتًا حائرًا كمن عاثت به جنة. وكانت هي أيضًا بالرغم من شعورها بجاذب قوي يجذبها إليه وارتباط نفساني يربطها بنفسه، تنصحه بألا يتهور في حبها تهورًا يعيقه عن إدراك الأمنية التي يرمي إليها من وراء دخوله المدرسة.

مضى على الحبيبين وهما على تلك الحال عدة أهلة أصيبت على إثرها والدة نجيب بداء عياء حار فيه الطب، وهو داء الفالج، فلم يدع ولدها التعيس طبيبًا إلا واستدعاه أو حكمة مجربة إلا واستعان بها ضد هذا الداء العياء. وكانت أديل في غضون مرضها ملازمة سريرها تعزيها وتواسيها مخففة عنها وطأة العلة ولم تتركها إلا ساعة تعطش نفسها للصلاة في المعبد مع جماعة المؤمنين.

وشاءت إرادة الله أن تنشر غيمة في سماء سعادة الابن وحبيبته فرزأهما بوفاة أمهما في الليلة العشرين من مرضها.

تسللت الحياة من جسم تلك الأم البارة وقضت نحبها رافعة يديها على رأس ولديها نجيب وأديل لتباركهما.

هذه هي الدموع الأولى التي اعترضت السعادة التي كان نجيب وأديل يعللان أنفسهما بها، ولا شيء يحزن القلب ويؤلمه كالدفن سيما دفن الأم.

خـرج نجيـب عـلى إثـر هـذه المصيبـة مـن المدرسـة منهيًـا صفـه العلمـي كـما يخـرج معظـم هـؤلاء الشـبان الذيـن لا يقصـدون مـن الـدرس إلا الحصـول عـلى شـهادة تؤهلهـم حـق الانخـراط في سـلك الموظفـين المسـتخدمين فيتفنَّنـون في إتقـان اللغـات ويمـرون بالعلـوم والحقائـق التـي ترمـي إلى توسـيع المـدارك، وتعـوِّد المـرء عـلى الاعتـماد عـلى النفـس الـذي هـو أسـاس النجـاح مـرّ الكـرام باللغـو، فيخرجـون مـن المدرسـة كمـن دخـل الحـمام واكتفـى بغسـل وجهـه. كذلـك خـرج نجيـب وهـو في حاجـة إلى علـم وتجربـة تجعلانـه في معقـل مـن الهـدى، لا يبلغـه الضـلال ولا تنـال منـه المصائـب، فولـج أحـد المصـارف كاتبًـا بمعـاش شـهري قـدره خمسـمائة قـرش وجعـل يكتـب في بعـض الجرائـد المصريـة والسـورية مقابـل مبلـغ زهيـد كان يتقاضـاه عـلى كل رسـالة، وحـدا بـه حـب الشـهرة والتقـدم إلى الانخـراط في سـلك الجمعيـات حتـى لم يكـن آنئـذ منتـدى أدبي أو خـيري إلا وكان أحـد أعضائـه، وكانـت معيشـته الاقتصاديـة ككل شـاب عـازب يندفـع في ربيـع الحيـاة إلى الجمـع بـين الإسراف المـالي والصحـي، حتـى شـعر بوجـوب تحديـد يـوم الاكليـل، فـزفّ جنبًـا إلى جنـب مـع حبيبتـه أديـل في الكنيسـة ذاتهـا، حيـث ذاك الكاهـن الـذي

تـلا صـلاة المـوتى فـوق جثـة أمـه منـذ سـنة، تـلا فـوق رأسـيهما صـلاة الـزواج وأقـام العريسـان في ذلـك البيـت الصغـير حيـث مـرّ بأفراحهـما وكان شـاهدًا عـلى أحزانهـما.

مـن أطـوار هـذا الإنسـان العجيـب أنـه عندمـا يهاجمـه سرور جديـد وفي وقـت تمتعـه بفـرح قلبـه، بحبيبـة صبـاه، لا يعـود يتذكـر بـل ينـسى أحزانـه

الماضيـة كـما تنـسى الشـجرة ثلـوج الشـتاء الأخـيرة عندمـا تهاجمهـا أوراق الربيـع الجديـدة. تلـك هـي طبيعتنـا الشـقية، نعتقـد أن لا بـد لنـا في هـذه الحيـاة القصـيرة مـن أحـزان نـشرب معهـا كأس المنـون ومـع ذلـك ننسـاها ولا نريـد أن نذكرهـا قبـل المـوت.

كذلـك كان نجيـب، غـير أن حبًّـا جديـدًا إلى جانـب حبـه لزوجتـه قـد أشرب قلبـه وزاده تعلقًـا بالأمـل، ألا وهـو حـب طفلـه البكـر الـذي أتـت بـه زوجتـه إلى العـالم.

وكان الطفـل المسـكين ينمـو شـيئًا فشـيئًا دون أن يفتكـر بالقـبر الـذي سـيفتح عـما قريـب بجانـب مهـده. فأصبـح مركـز حـب والديـه وملتقـى عواطفهـما، وغـدا ذاك البيـت الـذي تلهـى وتعـزى منـذ حـين عـن وفـاة الأم القديمـة يبسـم ويفـرح لمناغـاة هـذا الابـن الجديـد.

غـير أن الدهـر، والدهـر قلـب، أبى إلا أن يعـود ويغطـي هـذا البيـت بالحداد فاسـتل منهـما طفلهـما عـلى إثـر مـرض اعتيـادي كثـيرا مـا يلـم بالأطفـال ويحـار فيـه الطـب.

ونزلـت عليهـما هـذه المصيبـة كالصاعقـة حتـى كادت تطـير بلبهـما، ولبثـا مـدة حائريـن حزينـين عـلى فقـده كـما لـو ألمَّ بهـما جنـون.

غـير أن المصيبـة فاتحـة النفـس عندمـا تبتـدئ تدخـل الحيـاة لا تعتـم أن تسـير في فتوحهـا بخطـى واسـعة.

الفصل الثالث
(في الحرب العظمى)

•••

ما كادت دموع الزوجين الشابين تنشف على إثر وفاة ولدهما حتى نزلت بهما سنة إشهار الحرب العمومية على إثر مقتل ولي عهد النمسا سنة ١٩١٣، فأعلن التجنيد العام في العالم بأسره. وعبئت الجيوش على الحدود، واشتبكت تركيا في الحرب مع الدول العظمى إلى جانب ألمانيا، وكان ما كان من أنباء ذلك اليوم العظيم، فكانت مصيبة على العالم أجمع، أفقدت نجيبًا جل ما اعتمد عليه لدى النوائب وهو وظيفته والمبلغ الذي خلفه له والداه؛ وذلك لأن تركيا على إثر إشهار الحرب وضعت يدها على مصارف الدول المعادية لها ومكاتبهم ومدارسهم وبردهم وملاجئهم الخيرية وعلى ما خولهم إياه حق امتيازاتهم، فأصبح المسكين بلا وظيفة، وليس في يده صنعة يكون له من ورائها مكسب. فلم يبق له ما يعلل به نفسه إلا ذلك المبلغ المودع عند التاجر، وجرى أن دعته الحكومة مع من دعتهم للدخول في سلك الاحتياط العسكري؛ فلبى الدعوة لأنه كان غيورًا متحمسًا، ويعد الجهاد في سبيل الوطن فرضًا واجبًا على كل إنسان، ولم يشأ أن يدفع بدله العسكري خمسين ذهباً عثمانياً كما فعل سواه، بل عول على أن يبقي تلك القيمة لزوجته فتكون لها سنداً وعضداً بعده. وذهب قبل سفره إلى التاجر نجيب فما كان منه إلا أن أجابه بالجبة والغلظة معتذراً بأن أمواله مودعة بالبنك العثماني الذي يأبى عليه تسليه إياها.

كان النـاس في ذلـك الوقـت قـد تخوفـوا سـوء المصـير فأقفلـوا عـلى الألمـاني والعثـماني تسـليهم ودائعهـم فـزاد الأمـوال، ولكـن مـاذا يفعـل القانـون والسـلطان برجـل مفلـس.

الادعـاء بالإفـلاس عـادة، بـل زي يقـدم عليـه فريـق ممـن لا مبـدأ لهـم ولا خـلاق مـن أصحـاب الديـون والودائـع فيسـتحلون مـالًا حـرم عليهـم، جمعـه صاحبـه بسـهر الليـالي وتعـب الأيـام. الادعـاء بالإفـلاس جريمـة يشـجع عـلى اقترافهـا مجـرد وجـود قانـون الإفـلاس. إن التشريـع لا يـزال ناقصـا، وبعـض القوانـين لا تـزال تجلـب الـضرر مـن حيـث تريـد النفـع.

ولعـلّ التاجـر نجيبًـا كان مفلسًـا حقيقـة، ولعلـه لم يكنـه إلا أن انقطـاع فلسـطين عـن العـالم يومئـذ زاد في الضائقـة حرجًـا، فتسـاوى المـوسر والمعـسر وأصبـح الفقـير يبحـث عـن بلغـةٍ مـن الخبـز يغـذي بهـا صغـاره، والغنـي يسـهر ليلـه مـع نهـاره للمحافظـة عـلى مـا في يـده مـن المـال ليكـون لـه عونًـا عـلى مـا سـوف يدهمـه مـن البـلاء فيـما لـو طـال أمـد الحـرب، سـيما وقـد حـد اشـتداد الأزمـة ووقـوف حركـة الأشـغال والمشـاريع العموميـة بأكـثر الأسر الشريفـة إلى رهـن حـلي نسـائها في المصـارف وسـواها.

إن الإنسـان لا يعجـز عـن احتـمال الشـقاء الدائـم ولكنـه يعجـز عـن احتـمال السـعادة المسلوبة.

بـكي نجيـب وابتـأس فلـم يجـد البـكاء، ومـا نفعـه الابتئـاس. أربعـة عوامـل تناوبتـه لـو تناوبـت الصخـر الأصـم للينتـه: حبـه امرأتـه وواجبـه نحـو وطنـه، ومالـه المفقـود، ووظيفتـه المسـلوبة عوامـل لم يسـعد بهـا إلا ليشـقى بهـا، ومـن رآه عـلى تلـك الحـال رأى شـابًّا في نحـو الثلاثـين مـن عمـره؛

رقيق الجسم أصفر اللون على وجهه بقية باقية من جمال لم تستطع تلك العوامل أن تذهب بها كتلك البقية من الرائحة العطرية التي تستنشقها في زهرة أشرفت على الذبول.

واستعان نجيب برجال الشرطة على مدينه، فولّوه شطر وجوههم لأن الحرب الكبرى وقانون الإفلاس المواراثوريوم أفحمت المداينين وأخرست ألسنتهم.

وهمّ لإيجاد وظيفة يحصل من ورائها ما تدعو إليه الحاجة لحفظ الحياة فصاح به الواجب الوطني ودعاه منادي الحرب، وحاول تلبية هذا الداعي وتحفز للقيام بذلك الواجب، فوقف أمامه شبح تلك الصبية التي أحبها وعبدها وأذاب لها حبة قلبه. وأنى لها قلب يرعاها مثل قلبه، وعين تسهو عليها مثل عينه، وروح ترفرف فوق رأسها مثل روحه، ونفس تضم جوانحها عليها مثل نفسه، وأما تركها وحدها فيكون كمن ابتغى صلاح شيء بفساد شيء آخر.

كان نحيب يعتقد أن الواجب فوق الحب، فلو استرجع ماله من ذلك التاجر لما تردد قط في الدفاع عن الوطن ولا بقي ذلك المثل لامرأته حرزًا تدفع به الضائقة عن نفسها، أما وقد رأى أن ذلك أصبح مستحيلًا فبات يرى أن الحب هو فوق واجب تعرض تأديته من امرأته نفسًا لسوق يساومها جمالها ويرميها بسهام جارح من مريشات سهامها يصيب مقتلًا من شرفه، فوقع بين وَيْلَيْنِ وأصبح يرى الأرض غير الأرض والسماء غير السماء، كأنه آدم هذه الدنيا يندب جنته ويشكو ذلته، ويخلو العاقل من ويلين أهونهما فلم تغلبه عواطفه نحو وطنه على

عواطفه نحو زوجته وعوّل على عدم تلبية ذلك الداعي وأخذ يسعى متخلجًا متجذرًا أعين الرقباء وراء ما يدرأ عنه وعن أديل غارة العوز، فينزوي وراء جدران بيته ويكتب بعض نفثات من أفكاره ويرسلها إلى إحدى الجرائد المنتشرة وقتئذ في القدس متقاضيًا عنها شيئًا زهيدًا كان يصرف في حينه، وهذه الصناعة لا تشفي في الشرق غلة، فاضطر إلى بيع ما ابتاعه لامرأته يومئذ من الحلي والجواهر، وحاول أن يدير ثمنها شغلًا يصيب من ورائه رزقًا فلم يقدر لأنه لم يكن ليملك بيده قيادة أمره لأنه لم يجب منادي الجندية فعُدَّ فارًا.

من لم ير كيف يفر فهو لا يعرف الخوف، كذلك الجندي الفار يبيت مروعًا خائفًا يفرق من الفي ويفزع من لا شيء، ولا ينبح كلب ولا يلوح له شبح إلا ويطير له لبه، هكذا كان نجيب والحرب يومئذ في مهدها.

وأخذت الضائقة تشتد في الناس يومًا فيومًا، فما كنت تمر إلا بشوارع تصطك فيها أقدام العساكر بالإقدام وتقرع فيها الرؤوس، وما كنت ترى إلا وجوهًا مقطبة وعيونًا شاخصة وأفكارًا شاردة، كل يتوقع أنباء جديدة يكون من ورائها انتصار قوم على قوم، أو انفراج أزمة، أو عقد هدنة، وما كانت الحرب العظمى في الحقيقة إلا كالهلال في بدء تكونه، فاصطكت الركب وهلعت القلوب وبات الجميع يسعون وراء ما يتوقون به صواعق هذه الضائقة. وحبس اعتقال البحر في قبضة الإنجليز الناس عن الخروج في طلب وجوه الرزق فازداد اشتداد الضائقة وانقطعت الواردات ووقفت الحركة الاقتصادية، ونضبت الموجودات

وارتفعت أسعار الحاجيات والضروريات وأثقلت الكواهل الضَّرائب والإعانات، وتسللت الأيدي العاملة من جسم العائلات للرضوخ لحكم الجندية المبرم، فناحت النائحات وبكت الباكيات وطارت النفوس وصعقت القلوب، ورنت المنازل والدور بالنحيب والتعداد.

وما زال نجيب يكافح تلك الأيام ويناضل هاتيك البُؤوس حتى قصرت يده عما تدعو إليه الحاجة فاضطر إلى بيع بيته الصغير بما فيه من الأثاث والآنية والخردى سامحًا له مشتريه بالإقامة فيه مدة الحرب مقابل شيء خصمه له نجيب من ثمنه الباخس.

وكان كل مساء يأوي إلى زوجته فيتشاكيان سوء طالعهما ويندبان صباهما وبعدها ينقلب كل إلى سريره فيبقى هو وحده لا ينزل النوم بأهداب عينيه حتى الفجر.

وتلمُّ زوجته في صباح اليوم التالي لمجرد نظرة إلى وجهه وعينيه بسهره فتمسك عن الكلام وتطرق برأسها وتتحدر الدموع من مقلتيها كعقد وهي سلكه وانتثرت حباته. غير أنها تعود وتندم على ما فرط منها وتنظر إليه نظرة اللائم العاتب وتشرع بفضل عظتها وفرط هدايتها ومبلغ حبها له من نفسها تعزيه وتعلله بالأمل الذي به يحيا الإنسان شافعة ذلك بابتسامة ترتسم على ثغرها كانت تعزيته الوحيدة.

الأمل الباطل قائد اليأس القاتل. عبثًا كان نجيب يتعلل بكلام زوجته لأنه كان شاعرًا بعجزه عن جلب السعادة التي يريدها لها، وبوجود نفس بريئة تتعذب معه بما يتعذب. فامتلأ قلبه من الهم ونفسه من الأسى، وبات يرى الأرض في ناظره أظلم من الدجى وتولدت فيه عاطفة

كره الحياة والنفور من العيش. ومدّ إلى الانتحار يدًا أعادها مرتجفة، ولو استفسرته وقتئذ لسمعته يناجي نفسه قائلًا: حب النفس غريزة وضعها الله في الإنسان، ولا يفقد هذه الغريزة إلا من أصيب في عقله وبلغ الجبن من نفسه، حتى الحيوانات فإنها تتجنب ما فيه هلكتها وصرعتها، فكيف أنتحر إذن؟

الانتحار منتهى ما تصل إليه النفس من التسفل والضعف، وما المستبسل فيه إلا بطل من أبطال البيمارستانات وهو جريمة لا يقدم عليها إلا من كان عدوًّا مبينًا لله ولنفسه وللإنسانية، وأحر بمن هو كذلك أن يعذب في الدارين، فكيف انتحر وعندي قطرة من دم وذرة من عقل؟ ولكن سأذهب إلى الحرب وأعتق هذه النفس البريئة من عذابها؛ لأن وجودي إلى جانبها بدون حر مغنم أو دفع مغرم مطهر لجسدها وجهنم لنفسها! سأذهب إلى الحرب وأموت ميتة شهيد محب لوطنه خالعًا عني نير القرار ومنقيًا نفسي من أدران الجبن.

تذهب هذه المصائب أحيانًا بذي اللب فيلهو بها عن أخذ الحيطة لنفسه ولذويه فيطيش سهمه ويضيع صوابه. تلك هي الحالة التي حدت بنجيب إلى اليأس والقنوط حتى وقف ذلك الموقف في بدء هذه الرواية حيث رأيناه جاثيًا إلى جانب سرير أديل.

ولنتبعه الآن في مسيره الليلي يوم غادر الدار وخرج هائما على وجهه.

الفصل الرابع
(الفوضى)

•••

عـاد نجيـب بخطـى متثاقلـة متجهـا نحـو الجنـوب ولعلـه اسـتصوب الالتحـاق بالجيـش العثـماني القـادم مـن الشـمال لشـن الغـارة عـلى مـصر واسـتخلاصها مـن أيـدي الإنجليـز.

اجتـاز بـاب الخليـل مـارًّا في الطريـق العموميـة المؤديـة إلى بيـت لحـم حيـث جعـل يسـير سـيرًا حثيثًـا محـاولًا نسـيان مـا تولـد في نفسـه مـن الحـزن لـدى إشرافـه عـلى مقـبرة صهيـون وتأملـه بالقبـور المحيطـة بقـبري أمـه وولـده حتـى انتهـى إلى قـوس مـن الخشـب صنعتـه الحكومـة حـين ركـب ذلـك الطريـق جيـش الشـمال الزاحـف إلى مـصر، وزينتـه بأغصـان الزيتـون والصنوبـر وعلقـت عليـه لوحـة كتـب عليها بأحـرف كبـيرة «ادخلوا مـصر آمنـين» هنالـك وقـف نجيـب يتصـور شرف القتـال في سـبيل الوطـن ولـذة المـوت تحـت ألويـة النـصر.

خواطـر تمـر بفكـر المسـتميتين وأصحـاب مبـدأ الوطنيـة يخـدرون بهـا إحساسـاتهم ويخادعـون أنفسـهم تخفيفًـا لوطـأة المـوت وتلطيفًـا لألم النـزاع.

واسـتطرد سـيره ملفتـا عينيـه مـن حـين إلى آخـر نحـو القـدس كأنهـما تنطقـان برغبتـه في الرجـوع عـلى أعقابـه حتـى انتهـى إلى ديـر مـار اليـاس، حيـث عطـف يـسرة وجلـس يسـتريح عـلى مقعـد مـن الحجـر مطرقًـا إلى الأرض وغائصًـا في لجـج الهواجـس؛ إنـه كان يهجـس بأديـل ولا ريـب.

وكان في غابة الزيتون المجاورة له طائر يصدح بصوت هاجت شجونه وحركت أحزانه فنظر إلى القدس نظرة أخيرة وقد خضب السماء لون مشرب البياض ظهرت على أثره النجوم مفضضة كأنها دنانير نثرت على بساط زمرد، وأقراط خود ترتعد فرقًا من الفراق وقد لاح في الأفق «مفتوق من الصبح أشقر» كان إشارة لعمر بن أبي ربيعة الشاعر المحب إلى قرب تركه حبيبته خشية هبوب الحي. ثم نهض عن مقعده لافظًا اسم أديل، وكاليهودي التائه استطرد سيره. وما زال كذلك حتى أشرف على بلدة واقعة غربي بيت لحم تدعي بيت جالا. وفيما هو يمتع نظره بجمال موقعها الطبيعي وغاب زيتونها وروضها وحدائقها وقد فضح الليل النهار إذا بجندي من رجال الجندرمة تدعو النظرة إليه إلى الريبة فيه، مرّ به وبندقيته على كتفه وهو يلتفت يمنةً ويساراً، فحياه فصعر خده وتثاقل في تحيته، فمضى نجيب في طريقه ونظر الجندي يرتسم مواقع أقدامه وما كاد يغيب عنه سواده حتى رأى الجندي عائد إلى أعقابه كأنه السهم المنطلق، وما كان منه إلا أن اعترض طريقه وصرخ فيه قائلًا: قف أيها الشاب. فوقف نجيب لا يبدي حراكًا ثم قال الجندي:

- ممن الرجل؟

- فأجاب من أهالي القدس.

- إنك جندي يا هذا؟

- نعم

- وأين إجازتك؟

- لا إجازة لدي

- سر معي إذن

- إلى أين؟

- لا شـأن لك في هذا السؤال

- وأنت لا شـأن لك في معارضتي

- أعترضك رغم أنفك

- أنا سـائر إلى دار الحرب يا هذا

- وأي حرب تعني؟

- الحرب الناشـبة بيننا وبين الإنجليز

- ليـس عليك بزة جندي

- إنني متطوع!

- إنـك مجنون خراط في عقلك

- وأنـت بذيء هديم اللطف

- دع اللجـاج وإلا دققت عنقك!

- مثـلا من يُدق عنقه

- ماذا تقول؟

- سـأرفع أمرك إلى كبيرك

فنظر إليه الجندي وهو يتكلف الكظيم ويغالب اضطراب نفسه كأنه شيطان يحاول أن يتخبطه بمس منه وقال بصوت سبقته إلى مخارجه الخشونة وامتزجت بأجزائه الحدة:

- إن كبيري أعلم بحالك وأدرى بقصاصك، وأنا الكبير الطلق هنا لأن قانون الجندرمة يخولني حق القبض عليك والتصرف المطلق فيك.

فقال نجيب وقد هبت من شمائله روائح العزة:

- لقد أسمعتني ما اسمعتني وأزيدك علمًا أن قانون الجندية يقضي عليك بعدم اعتراض جندي في طريقه فسرحني إذ لا سبيل لك عليّ.

- إن تسريحك ليدخل في باب الاستحالة.

- ولماذا؟

- لأنك جندي فرار. أما والذي رفع السماء وبسط الأرض لأجعلن سافلك أعلاك وأعلاك سافلك إذا لم نترك اللحاح واللجاج.

قال هذا وأخرج من جيبه حبلًا غليظًا وقبض على ساعدي نجيب محاولًا شدهما به إلى الخلف فقاومه نجيب بساعديه المفتولتين مقاومة ألجأت الجندي إلى الصفير، فإذا بجندي آخر مقبل من البعد قد أسرع مهرولًا وهو عندما رأى رجلًا عاري الرأس يحرص على الانفلات من يدي رجل يحرص على إمساكه انطلق كالذئب خلف الفريسة يرنح نجيبًا لطماً ولكمًا ويتحفه بأنواع السباب والشتائم غير تارك لفظة من اللغة التركية والعربية تدل على لعنة أو تشير إلى بذاءة إلا ورماه

بهـا حتـى انتهيـا مـن شـد وثاقـه وإحـكام رباطـه ونجيـب سـاكت باهـت كأنـه يحلـم أو يطيـش.

وسـلب الجنديـان نجيبًـا الحقيبـة التـي احتقبهـا وسـارا بـه نحـو القريـة بخطـى واسـعة وهـو موثـوق بينهـما حتـى بـصرا في عـرض الطريـق بشـاب آخـر يشـتغل في الأرض وسـألاه إجازتـه فـما كان منـه إلا أن ضرب بيـده إلى جيبـه وتخلـف مـع أحدهـما متظاهـرًا بإخـراج الإجـازة ودس في يـده بضعـة ريـالات كان لهـا بعـض الوسوسـة ومـضى في حـال سـبيله.

لـو لم تكـن السـلطة العليـا وخاصتهـا المثـل السـوء لمـا بلـغ اسـتخفاف الجندرمـة بهـا هـذا المبلـغ، كـما أن فسـاد عامـة الأشـياء لا يكـون إلا مـن تـرك عقوبـة مـن يسـتوجب العقوبـة وإفشـاء الـسر، ومسـاعدة المفسـد عـلى المصلـح.

وإنهـما ليواصـلان السـير حتـى انتهيـا إلى بيـت جـالا حيـث طلبـا مختاريهـا فحـضر اثنـان منهـم وبذلـة كذلـة الرقيـق حييـا الجنديـن ودون أن يجيباهـما بمثـل تحيتهـما لهـما سـاقاهما أمامهـا بلهجـة القـادر المسـتبد وطلبـا إليهـما أن يدلاهـما عـلى بيـت المدعـو سـالم بـن خليـل فلـم يسـعهما إلا إجابتهـما إلى سـؤالهما، وبعـد أن حبـس الجنديـان نجيبًـا في قبـو مظلـم أُعِـدَّ في السـوق لطـرح الأقـذار، سـارا مـع المختاريـن إلى بيـت الشـخص المطلـوب. ومـا هـي إلا لحظـة حتـى وقفـوا عـلى بـاب منـزل أعـد لسـكنى البائسـين، يرتكـز وجهـاه عـلى وجـه الأرض، فدخلـوه منحنـين تحـت سـقفه انحنـاء سـكانه البائسـين تحـت أثقـال العيـش وأعبـاء الحيـاة، فـإذا بهـم أمـام شـيخ في نحـو الثمانـين مـن عمـره جمـع في منظـره بـين مـرض الشـيخوخة ومـرض الجـوع

وقباله صبية التصق بطنها بظهرها جلست على خشبة طرحت فوق المصطبة مرتدية ثوبًا خلقًا أغفت رتق فتوقه، وقد عبست الخيبة وجهها وكادت تمحو جمالًا قديمًا نمت عليه ملامحه، وإلى جانبها وليدة صغيرة كانت تقضم كسرة من الخبز اليابس، ما علمت حين رأت الجنديين يصحبهما المختاران داخلين أن حفز الخوف أحشاءها وصرخت راكضة نحو أمها قائلة بلغة الأطفال ماما.

من جهل المرأة ونقص التربية في الشرق أن الأمهات يروعن أولادهن عندما يردن ردعهم عن البكاء بالبعبع والغول والعسكري فحدا ذلك بالطفل إلى الفرق والخوف لدى رؤية الجندي فكيف به إذا كان كهذين الشرطيين؛ وحشين في صورة إنسان.

واعتري الصبية حياء لما هي عليه من سوء الحال ومظهر العوز. وإن أحد الجنديين ليقول بلهجة المهدد: أين ابنك يا شيخ؟

وكانت تلك الكلمات غير خليقة لأن تصل أسماع ذاك الشيخ لوقر (طرش) كان في أذنه، حمله على رفع بصره الضعيف في الجنديين وإجابتهما بلهجة الاستفهام قائلًا: نعم؟

يقضي الدين والشرائع الارضية والآداب الاجتماعية بتكريم الشيوخ غير أن معظم رجال الشرطة في ذلك الدور كانوا مجردين من هذه الآداب. أوتدري ما كان جواب الجندي؟ لقد قال له وهو يهز رأسه ساخرًا: إنك يا شيخ خرف لا تدري ما تقول، ثم تحول بعقل يسير وسفه كثير نحو المرأة قائلًا: أين زوجك يا عاهرة؟

سبقت الطبيعة وحددت لكل إنسان درجة قواه العقلية، ومهما يكن تأثير التربية إلا أنها تعجز عن إصلاح الأحمق والسفيه والمعتوه، كذلك الحيوان جعلته ضمن دائرة محدودة لا يمكنه أن يتعداها مهما كانت الحالة التي تحاول أن تجعله فيها ومتى علمت ذلك لا يتعذر عليك أن تدرك أن لكل إنسان حيوانًا مثل طباعه، فمنه ما يمثل الفضيلة كالحمل ومنه ما يمثل الرذيلة كالذئب، فلو جئنا بالذئب وأسكناه في هيكل بشري رأيت فيه شخص هذا الجندرمة، ولو علم هذا أن كثيرات من هؤلاء اللاتي يرزحن تحت نير العوز ويرسفن في أغلال الفاقة أفضل من كثير من ربات الخدور لتردد في إخراج لفظة عاهرة من بين شفتيه ولاتقى الله في رمي قلب تلك العفيفة بهذا السهم الجارح، والتي ما كادت تتلقاه حتى غضت من طرفها، وغيضت من عبرتها، وخضب الحياء جبينها وودت لو ساخت بها الأرض تختفي عن الأبصار، ولو اقتصر على ذلك لخف الخطب وخفت البلوى، ولكنه تجاوز منها إلى أخذ الشيخ عن يده بعنف وإخراجه خارجًا عاري الرأس والقدمين وقائلاً له بصوت كقصف الرعد: أين ابنك يا خرف؟ إنه عسكري فرار!

الجندرمة شرذمة سوادها من فظّي الأخلاق وشذاذ الخلق، تلوح معاطفهم بمخائل السلطة وتهب من أردانهم ريح الجساسة، إذا غضب أحدهم لعقور، وإذا ضحك فنمر، بينهم العربي والكردي والأناضولي وأكثرهم يجهلون لغة الأهلين ولا يلمون حتى بأحرف لغتهم الهجائية.

اتخذت الحكومة السابقة هؤلاء العاطلين عمالا تنفذ بهم أوامرها في

قرى ليس فيها هيئة حاكمة، وعهدت إليهم مهمة إلقاء القبض على كل فار من الجندية وهم مقابل ريال أو ريالين يسرحون ذلك الفار. فيهينون الشيوخ ويروعون الأطفال ويخيفون النساء ويظهرون أمام الشعب أن السلطة الحاكمة قد تجسدت فيهم فيحمقون ويغضبون لغير ما سبب، توصلا إلى حمل الجمهور على إخماد سورة غضبهم بدر المال عليهم وإجزال العطاء لهم، والويل لمن يلج أبواب مخالفتهم أو تحدثه نفسه يرفع شكواه إلى من هو أكبر منهم فإنهم يتهمونه التهم الشنعاء ويدعون عليه بما ليس في الحسبان فكأنهم انكشارية هذا العهد يلعبون بالسلطة وبالأهالي لعب الطابة بالأكر. ورب قائل يقول: على مختار القرية أو عمدتها يتعلق رفع الضيم عن الأهلين، فنقول إن جل هؤلاء المختارين غير أباة الضيم، وما المختار إلا أحد الأهلين مستضعف بإزائهم منقطع الجذم، وأي نفع يرجى من رجل يجهل القراءة والكتابة وكيف تصغي السلطة العليا لرجل كهذا تضيق في وجهه السبل عن إثبات وجوده في بلده وبين قومه فيرشح نفسه لمثل هذه الوظيفة ظنًّا منه أنه بتقربه من الحكام يصبح رجل قومه وبلده الذي يشار إليه بالبنان.

المختار رجل من العوام ومن هم العوام؟ أولئك الذين إذا جهلوا خافوا وإذا خافوا استسلموا وهم الذين متى علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا،

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة لمن جهالهم سادوا

إن الجسارة الأدبية خير عون للإنسان على خصمه مهما كان غبيًّا، والكبير ليس كبيرًا إلا لسجود ابن الشعب له، فإذا تعلم ابن الشعب ونفض عنه غبار الجهل انفتحت عيناه لأهم حقائق الحياة وعرف كيف يتولى أمره بنفسه، وكيف يدفع عنها الخسف ويناقش المستهترين به الحساب، وعليه بألا يعتمد في اكتساب العلم إلا على نفسه لا على الحاكم؛ لأن الحاكم إذا كان مستبدًا كان الوصي الخائن فكما أن ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام أشدهم كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية.

وقبل أن يسترسل بنا القلم في وصف موقف ذلك الجندي مع الشيخ نقول: هذا الشيخ أرمل قدم منذ ثلاث سنين من بلاد الشال مع ابنه الشاب المدعو سالم وزوجته الصبية المار ذكرها واسمها مريم لضيم حل به من ذويه حمله على تركهم، وهي عادة عربية لا يزال متمسكًا بها كثيرون من سكان القرى. فرأى الإقامة في هذه البلدة لما عرفت به من النجدة والميل إلى مناصرة الغريب. وكان ذا مال لم تبق عليه الحرب العمومية فأصبح يرزح مع عائلته على مدرجة من العوز والفاقة وليس لديه ولد غير سالم فنشأ دون أن ينال حظاً من العلم والمعرفة فكان يتعاطى حرفة نقش الصدف وهي حرفة كانت تدر المال على أهالي بيت لحم وبيت جالا لتفردهم بها لكنها ماتت عندما ولدت الحرب العمومية فلم يبق للشاب ملجأ يصيب منه الرزق إلا تشذيب شجر الزيتون وبيعه حتى طلب للخدمة العسكرية فلبى الدعوة أولا وعندما بلغه ما يقاسيه والده وامرأته وطفلته من العوز فرّ من فرقته وركب متن جريمة السرقة إلى أن أتاه الطلب الثاني

فذهب واختبأ في أحد البيوت عندما سمع بقدوم (الجندرمة). وماذا تريد من شيخ على أبواب الآخرة أن يجيب عن شاب لولاه لقضي جوعاً على ثلاثة أنفس وهل إذا نصح ابنه بتسليم نفسه وحب النفس غريزة طبيعية في الإنسان يهتدي بنصحه ويصدع بقوله سيما ومعظم الأبناء اليوم قد شقوا عصا الطاعة للوالدين وأصبحوا آباء أصبحت آباؤهم أبناء.

مسك ذاك الجندي واسمه خالد الشيخ عن يده كما قلنا وهو يصرخ فيه أين ابنك يا خرف والمختاران يتوسلان إليه وتلك الصبية تدنو منه حزينة القلب كسيرة الخاطر مقبلة رداءه وكالقديس اندراوس فوق صليبه وقفت أمامه ضارعة إليه كي لا يمس الشيخ بأذى وتلك الطفلة تبكي وتصرخ مرتعدة خائفة، ولو صادف هذا التذلل رجلاً قدّ من الصوان قلبه لرأف بها ولكنه صادف قلب رجل ليس من البشر فإنه ولاها ظهره مخرجاً على لسانه من جوفه قاذورات جمدتها في مكانها ثم وضع في عنق ذلك الشيخ خرجاً حشاه من روث المعز وطاف به الشوارع يتوكأ على عصاه، محرشا غلة القرية على أتباعه والسخر منه.

الظلم له يد وليس له فؤاد وصنيعة الظالم لا يسلك إلا صراط الظالم!

خصمان هذا ظالم سيفه سلمان وذلك بريء درعه أساه، مواقف مثل التي أنت تشاهدها أيها القارئ! بين الهدى وبين قلوب الطغاة سدود منيعة لا تُخرَق إلا عندها تصرعهم بعظاتك يا رب!

لنترك الشيخ على تلك الحال ولنعد إلى نجيب فإنه ما كاد يدخل ذلك القبو حيث تنبعث رائحة الاقذار والرطوبة حتى ضاق صدره وأخذ يسعى في فك وثاقه بأسنانه وما لم يجد إلى ذلك سبيلاً وكان الجوع قد أخذ منه مأخذه، جعل تارة يصيح ويصرخ وليس من مجيب، وأخرى ينفتل انفتال النمر ويتوقل الجدران حتى تولاه التعب واقعده النصب وهو يتمتم بين شفتيه لافظاً اسم زوجته. وما هو إلا ليستسلم لليأس والقنوط حتى طيف بالشيخ في الازقة فاقبل الشرطي وفتح باب القبو وخرج نجيب وقد محله البكاء وكادت روائح العفونة تذهب بأنفاسه، فإذا هو أمام ذلك المشهد الذي صورناه للقارئ.

وبلغ سالماً ابن ذلك الشيخ ما حل بوالده فلم يسعه إلا أن يسرع إلى حيث يمثلون به ويسلم نفسه للشرطي.

فأخلى الشرطيان سبيل والده وشدا الولد إلى وثاق نجيب وسارا معاً بهما تاركين البلد ووجهتهما القدس، غير أنها لم يركبا الطريق العمومية بل أخذا طريقاً آخر شرقي البلد بين الكروم والزيتون وما كادا يصلان المحل المسمى طبلية حتى بصرا عن بعد شخصاً فوق جواد ينهب الأرض عدوا، فكان من أحد الشرطيين المدعو خالد إلا أن أطلق ساقيه للريح وصرخ فيه بالتركية أن قف! وناداه ثانياً فلم يقف وما هو إلا ليصوب غدارته نحوه ويطلق عليه من فمها رصاصتين أصابتنا من كل من الفرس والفارس مقتلاً أسقطهما على الأرض يتخبطان بدمها.

لم ترخص الأرواح رخصها هذا إلا في سوق الحرب والجندرمة في تركيا.

وسار أحد الشرطيين المدعو خالد بنجيب وسالم إلى دائرة الشرطة دون

أن يسمح لها برؤية المجندلين وبقي الآخر مع الجريح ينتظر قدوم شرطي آخر يساعده على نقله إلى المستشفى.

وادعى خالد أمام كبيره على نجيب أنه تعدى على شرف الجندية وأنتزع ازرار سترته وكان قد سبق وقطعها هو بنفسه. وحاول نجيب دفع هذه الفرية عنه فكان جزؤه الحبس في محل سبحت مسطبته ببول البشر وذاق فيها الآلام ألواناً.

الصحة الجيدة أثمن ما يتحلى به المرء وهي تاج لا يراه إلا المرضى وقيل العقل السليم في الجسم السليم وفقير يتسول سليم الجسم خير من ملك مريض، لذلك أنشأت البلديات للحض على النظافة وأقيمت المستشفيات لمعالجة الأمراض واتخذت الاحتياطات لمحاربة الاوبئة وأسست البيمارستانات لمداواة المجانين وفي هذا المحل الذي اعدته الحكومة لسجن الأبرياء يُقضي على النظافة ومنه تولد الأمراض وتنتشر الأوبئة وينشأ المعتوهون وأبطال البيمارستانات.

وبعد أن أقام نجيب في ذلك المستنقع القذر ساعة أو ازيد أخرجا منه وهو يستعيذ وأخذ مخفورا صحبة سالم إلى دائرة أخذ العسكر حيث سُلما اجازة السفر ومنها إلى الثكنة العسكرية حيت يجتمع المجندون لسوقهم إلى دار الحرب لذلك سميت بلغة الأتراك (السوقيات) وهو مثل رقص في غرفه البرغوث وماس القمل وغنى البعوض وسبح البق، بل مدرسة يفقد من يدخلها آدابه ويخلع مروءته تدير دفة إدارتها يد اللصوصية. وفي الأخير محل يجمع بين المضحك والمبكي. وبعد أن

قضى فيه نجيب وسالم ساعتين سيقا مع ثلاثمائة نفر مخفورين برجال الشرطة إلى محطة القطار.

وكان منظر هؤلاء الاشخاص يدعو إلى النفرة والاشمئزاز. فإن رؤوسهم قد تساوت بأرجلهم في العري وأنتشر على وجوههم طبقة من طلاء الغبار والوسخ وعليهم أردية بالية مزقة ظهر من خلال رتوقها وفتوقها اديم بشرتهم. وجوه جمعت بين المذلة والجوع، وهمم بإرادة فترة تسير بأجسام لولا حركة الأرجل لخلتها جامدة لا حياة فيها. كانت الحكومة تجمع كل يوم ألوفاً من أمثال هؤلاء وتزج بهم إلى دار الحرب أمواتنا تحارب لحياة مؤملة من ورائهم نصراً عظيماً وفتحاً مبيناً.

مشي نجيب بين هؤلاء متخلجا لا يود أن يراه أحد خشية أن ينقل الخبير إلى أمرأته حتى المحطة حيث زج معهم في عربات القطار كما تزج الغنم في الحظيرة. والتفت حواليه فلم ير سالم فأدرك أنه لاذ بالفرار. ثم هيأ لنفسه مقعداً بجانب إحدى نوافذ القطار وأسند يده على حافتها محيطاً بجبهته راحتيه واستغرق في أفكاره.

وكان تارة يبكي حتى يبتل رداؤه وأخرى يبتسم حتى تكاد تلمع ثناياه، مما دل على أن تلك الأفكار كانت مزيجا من الحب والخوف والسرور والحزن والأمل والحية ولعله كان يعيد في مخيلته ذكرى ما صادفه في ذلك اليوم من المبكيات المضحكات، أم أن عارضاً من عوارض الجنون خالط عقله واستولى عليه أم أنها خيالات كان يهتف بها وجده القاتل باديل وأمله الخائب من السعادة ولعل هذا الأخير هو الأصح. نعم ذلك هو شأن المحب يسعد ثم يشقى بحبه وما الرجل إلا نصف ماثل

يطلب نصفه الآخر بين حجرات المرأة التي يحبها ويعبدها وما آخر أيامه إلا اليوم الذي يشعر فيه بخيبة آماله وانقطاع حبل رجائه.

وإن نجيباً ليسكن على إثر ذلك سكوناً لا تطرف فيه عين ولا ينبض عروق ولا يخفق قلب ولا يتحرك خاطر حتى يخيل للناظر أنه بين حي وميت، واستمر على ذلك برهة حتى صفر القطار منذراً بالبين وأنتفض انتفاض الطائر المذبوح ودون أن يعي أخرج من بين شفتيه لفظة «أديل» ثم أطلّ من النافذة وألقى من خلالها على المدينة المقدسة أورشليم نظرة لم يسترجعها إلا مبللة بالدموع، وتحرك المطار منساباً انسياب الأفعوان إلى أن غاب سواده عن العيان.

ولنعد الآن إلى الفارس الجريح فتجد فرساً تركت جثة لا حراك فيها تتناوبها الكلاب تارة والغربان أخرى وجنديين يحملان رجلاً على لوحة والدم يتصبب من صدره ذاهبين به إلى المستشفى.

وكان متفشياً إذ ذاك مرض أتى به الجنود معهم من الشمال ينتقل ميكروباً إلى الجسيم الصحيح بواسطة نوع من القمل ذي جناحين فتساوى الأهلون والجنود في هذا المرض، كثرت الوفيات وبات الناس يتخوفون وخامة المصير، وغصت المستشفيات وكانت كلها في قبضة الحكومة بالمصابين وأصبح حفار القبور ولا أنيس له سوى رفشه ومعوله.

ووصل الشرطيان بالفارس إلى أحد المستشفيات حيث وضع في أحد الغرف، وحضر الطبيب فرأى رجلاً في نحو الخامسة والثلاثين من عمره يتململ على فراشه من حرّ النزع ونفسه تحجل في صدر اندفع منه

الدم وبعد أن قلب الجريح مدققاً في فحصه التفت إلى الشرطيين وقال لا أمل في حياة الجريح لأن الرصاصة أصابت منه مقتلاً سوف تنتزع روحه بعد دقائق، وهل سألتموه من شخصه؟ أم هل وجدتم في أحد جيوبه ما يهدي إلى معرفته؟ فأجاب أحدهما:

سألناه على إثر اختراق الرصاصة صدره وهو مغشي علية عن شخصه فلاك بعض كلمات لم نفهم منها إلا هذه الألفاظ: نجيب. ارثوذكسي - بريء.

وما كاد الشرطي ينتهي من لفظة بريء حتى انتفض الجريح وطفق الدم القاتم الأسود يندلع من فيه، ثم فتح فمه ثلاثاً لافظاً مع نفسه الأخير لفظة «بريء» وأسلم الروح.

نظر الطبيب في عيني الميت فإذا بها متجمدتين ووضع يده في يده جاساً نبضه فإذا فيها بقية باقية من الحرارة المتسللة من جسم ودع الروح تواً ثم تنحى قليلا بالرغم عن اعتياده رؤية أمثال هذا المنظر ليخفي دمعتين تحدرتا من عينيه ثم نكس رأسه وقال والغصات تخرسه: مسكين بريء.. وأومأ إلى الشرطيين أن ينقلاه إلى غرفة الموتى.

مات الرجل وهو بريء، قتل ظلماً دون أن يؤخذ له من القاتل.

إذا جاز العفو عن الجاني والصفح عن المذنب فإنه لا يجور اغتفار الجرم العظيم والذنب الكبير.

هكذا يخترم سياج الشريعة وهكذا ينكسن رأس العدل.

في غرفة تحوي على جثث هامدة يبلغ عددها الخمسة تنتظر من

ينقلها إلى المقبرة وضع نجيب وجندي عليه بزة مقعرة، ذي لحية أجدب عاليها واخصب سافلها. وأنف أفطس وعينين غائرتين أطلت النفرة منهما وشدقين كبيرين انبعت منها رائحة خمرية فظهر تأثيرها على محاجره وقد وقف على بابها يخفر تلك الجثث، وقد سبل لحيته وخضب بالحناء أناملـه.

وكأن طول نظره في تلك الوجوه المصغرة التي ترد عليه يوميا بالعشرات قد ولدت فيه تلك النفرة فزعم أن الخمرة تزيلها فأخطأ نـؤوه لأن إدمانها لم يكن ليزيده إلا تقطباً ونفرة. وفيما هو كذلك إذا بكاهن ارثوذكسي من القدس قد وقف أمامه قائلاً: هل لك أن تعطيني جثة شاب أرثوذكسي اسمه نجيب؟ فما كان من الجندي إلا أن صعر خده ثم غتَّ من الضحك حتى كاد يستلقي كمن به سعفة من الشيطان وقال مخنخناً (مخرجاً الكلام من أنفه): هنا ست جثث أنتخب لك منها واحدة! توقف الكاهن ذاهلاً يتأمل الجندي سيما والموقف ليس موقف مزاح، وعندما لمح الجندي دهشة الكاهن جمع إليه أطرافه وقال وعلى وجهه الكالح نقاب من الخلو والذهول: مهلاً يا حضرة الشيخ سوف أهديك إلى جثة نجيب، قال هذا ودخل الغرفة مشيراً إلى إحدى الجثث المطروحة وقائلاً: هذا هو مطلوبك. فحملت الجنة للحال وتقدمها الكاهن وهو يرتل ويعزم وما كادوا يصلون بها المحل المعروف بباب الخليل حتى استوقفهم صوت من البعد فالتفت الكاهن إلى الوراء فإذا بجندي قد اقترب من النعش وقلب الميت كاشفاً عن جثته وقائلاً: هذه الجثة ليست بجثة مسيحي لأنكم معاشر المسيحيين لا تجرون سنة الختان وما هذه إلا جثة إسرائيلية

أتى أهلها لأخذها فلما لم يجدوها قلنا عسى أن تكونوا أنتم الذين نقلتموها على سبيل السهو فكان الأمر كما قلنا فلم ينبسن الكاهن ببنت شفة بل اختار السكون. فسلمت الجثة لأصحابها وعاد هو على أعقابه لنقل جثة نجيب الحقيقية ولم يشأ أن يدخل المستشفى بل استقبل الجنة واقفاً عند مدخله الكبير كي لا يرى سحنة ذلك الجندي الذي كان سبب تعبه وعذابه. وما هي إلا لحظة حتى أتو بالنعش يقل الجثة الحقيقية فتقدمها الكاهن وهو يسير بخطى واسعة خشية أن يصادفه ما صادفه في المرة الأولى، وما أعظم ما كان بشره عندما ما بلغ المقبرة وتلا صلاة الموتى وأنصرف.

هذا القليل هو التاجر نجيب التاجر الذي أودعت عنده أم نجيب زوج أديل بطل هذه الرواية ما خلفه لها زوجها وهو كما مر بنا حلبي الأصل عزب ليس له في القدس من يمت له بحبل القرابة غير شاب في سلك الجندية اسمه كامل قدم من حلب إلى القدس على اثر اشهار الحرب العمومية وأصبح قريباً له بطريق المصاهرة لأنه خطيب ابنة أخيه موسى التاجر المقيم بحلب. ولما أردت نجيباً رصاصة ذلك الشرطي لم يوجد من يسأل عنه في الحال فدفن على الطريقة التي مرت بنا وبقي أمره مجهولاً.

هذه هي الفوضى المنتشرة في البلاد يومئذ، ناهيك عن سوء التغذية في المستشفيات وخشونة الممرضين وجهلهم القوانين الصحية.

تنتهي حياة الميت في المستشفى ويبتدئ موته الحي في الجندية فإن هو أفلت من يد السيف المصلت فلا يفلت من يد الجوع والمرض.

الفصل الخامس

(أديل)

•••

استيقظت أديل على إثر خروج زوجها من البيت، ولما لم تجده إلى جانبها عزمت على النهوض من فراشها لتعرف أين هو. غير أنها رأت من خلال اسكفة الباب نوراً ساطعاً فظنت أن نجيباً كان يكتب حسب عادته، فلم تر بداً من العودة إلى نومها، ذلك النوم الذي لم تكن تشعر براحة في سواه لأنها كانت تغيب فيه عن همومها. ثم عندما بان الصبح أفاقت أيضاً وعادت فوجدت، نفسها وحدها ولما رأت أن لا ضوء في تلك الغرفة ظنت أن نجيباً أطفأه وأنه لا يزال يشتغل، فنادته، فلم يجبها أحد.

وأنها لنقول في نفسها: «لا بد أنه نائم» ونزلت من عن سريرها بهدوء وجذبت إليها الباب جذباً لم يسمع له حركة وأدخلت رأسها من شقه وجوّلت نظرها في جوانب الغرفة فلم ترَ أحداً وكان الشمعدان كما مر بنا قائماً على حفة النافذة وقد فنيت شمعته مخلفة على جوانبه شباكاً جمدها القرّ.

اضطربت سلمى بادئ ذي بدء عندما لم تجد زوجها ثم عادت وهدأت روحها بظنها أن نجيباً خرج خلسة ليسلم شغله الليلي إلى مدير الجريدة التي كان يكتب فيها كما مرّ بنا ويأتي بأجرته لتكون له عوناً على نفقته البيتية. وبعد أن ارتدت ملابسها وانتهت من ترتيب منزلها بنفسها شرعت في شغلها اليومي. ولما كانت لا تزداد إلا اضطراباً

جعلت تتعهد الغرفتين تارة تطل من النافذة وأخرى تقف في الباب مرسلة نظرها إلى عطف الطريق علّه يتبدّى لعينيها آتياً، ومرت بها دقائق كما تمر القلوب في صدور المنازعين حتى بصرت على حين غرة بأوراق مبعثرة على المائدة فعرفت خط زوجها ووثبت على الرسالة، وكانت في تلك التي نعهدها.

فضت الرسالة وجعلت تقرأ وكانت عند كل كلمة تمر يدها على جبينها والعبرات تخنقها كأنها تخشى على عقلها من الجنون، وما كادت تنتهي من تلاوتها حتى سقطت على أحد المقاعد وقد جمدت عيناها وجف لسانها وجعلت تلهث. ثم نهضت من عن المقعد وارتدت معطفها ووضعت قبعتها على رأسها وخرجت هائمة على وجهها إلى أن بلغت العمارة الروسية الخاصة بجمعية فلسطين حيث توقفت على حين غرّة وأطرقت رأسها وجعلت تهذي هذيان المحموم وتقول في نفسها:

«لعله ذهب إلى دائرة أخذ العسكر» ثم تعود وتدحض هذا الفكر قائلة: «كلا إنه في رسالته صرح بأنه لا يسلم نفسه كجندي فار» ومن بصر بها على تلك الحال لا يعتم أن تمر به خلجة شك في أمرها. وتستطرد سيرها لا تعي على شيء إلى أن رأت نفسها أمام مدخل تلك الدائرة (باب العمود) فبصر بها رئيسها (القولاغاصي) وهو ربعة في الرجال يبلغ الخمسين من عمره، حليق الذقن طويل العارضين، يضرب لونه إلى الحمرة، بعيد الحور، ثقيل الردن، عصبي المزاج، كبير النفس عن الجيب في تأدية واجبه، أرمني اعتنق الإسلام، فظّ تلوح بمعاطفه مخائل السلطة وتفوح من أردانه ريح الحدة، لا تفارق النفرة

حاجبيه ما لم يرَ جنساً لطيفاً فهو مئناث يحسن صحبته ومحادثته ولعل ذلك عن احترام لهذا الجنس وشعور بوجوب مساعدته لضعفه أم من مجرد الميل لمحادثته لما بين الجنسين من الجاذبية الفطرية! بصر باديل على تلك الحال فدعته النظرة إليها إلى الريبة فيها فسألها عن بغيتها فبقيت صامتة لا تحير جواباً لأنها خشيت إن هي ذكرت، أمامه اسم زوجها أن تذكره بفراره فيجد في طلبه وتفتح على نفسها باب مشكلة جديدة لا راحة لها معها فأعاد عليها السؤال فلم تنبس ببنت شفة فاضطر إلى تركها وعلى ثغره ابتسامة تدل على ما في قلبه من العطف على هذا الجنس والميل إلى ممازحته، وأنّى للحزن والشقاء أن يدع للابتسام سبيلاً إلى ذلك الثغر الذي كان منطبقاً على ثناياه انطباق المحارة على الجوهرة. وغادرت هي موقفها متنفسة الصعداء ومتعثرة بأذيالها لا تدري إلى أين تقودها قدماها، إلى أن اجتازت باب الخليل وبلغت المحل المعروف بالبقعة حيث مر بها أحد السابلة مقبلاً فسألته عن زوجها واصفة له إياه فأجابها أنه بصر بهذا الرجل وهو يضرب في الأرض عند دير مار الياس فأدركت للحال أنه ما ركب هذا الطريق إلا للذهاب إلى الحرب الناشبة على ضفاف السويس، وأنها لتستطرد سيرها الحثيث ضاربة أخماساً بأسداس ودارجة في ذلك الطريق إلى أن أخذ جسمها الغض من ذلك التعب بقسمه وكانت الطبيعة آنئذ قد ظهرت بكل مظاهر الجمال والرونق فمن شمس خلعت على الكائنات سرابيل البهجة، ومن أرض افترشتها يد الخلاق بأنواع الزهور والزروع الطيبة الشذا ومن طيور ترجع ألحانا تتموج لها دقائق الفضاء، وأشجار في الحدائق يمر بها النسيم فتتهادى سكانها

العرائس خارجة من حجلتها. غير أن أديل رأت الطبيعة في ذلك الوقت خيالاً منتصباً كالحلم بين اليقظة واليقظة، رأت الأشجار والزروع النابتة حوالى الأرض أشباحاً انبثقت من شقوق الأرض لتخيفها، رأت الأرض منظراً قبيحاً رهيباً هائلاً.

كذلك تتغير الأشياء أمام أعيننا بتغير عواطفنا. وفيما هي على تلك الحال إذ بغمامة مقبلة من الجهة الغربية كادت تغطي وجه الشمس، فإذا هي جراد طيار لم يمضي عليه دقيقة حتى ألقى عصا الترحال واستوى على قمم الأشجار والنباتات كملك فوق عرشه أخذ بأسنان كأسنان الأسد وأضراس كأضراس اللبوة يقرض الأوراق وينهش الأثمار ويقشر القضبان فتبيضُ وما كان يسمع إذ ذاك إلا أصوات تعلو في الجو ذاك يهش بعصاه والآخر يقرع على صناديق من التنك وكثيرات يبكين ويولولن وكهنة تصرخون إلى الرب، كل ذلك والضيف الكريم مستوٍ على عرشه هادي الفكر ناعم البال، وإن هي إلا لحظة حتى بصرت أديل جراد آخر آتياً من الجهة الشرقية منظره كمنظر الخيل والأفراس يركض فإذا هو زحاف وتمص وغوغاء كقوم أقوياء مصطفين للقتال تسلق الأشجار وكرجال حرب تسور الجدران، وكاللص دخل البيوت من الكوى والنوافذ، وبعد أن كانت الأرض كجنة عدن أصبحت في أسرع من لمح البصر خراباً يباباً.

شاهدت أديل هذا المنظر فأظلت الأرض في ناظرها وباتت تراها ارهب مما كانت وظنت أن ذلك الجراد أسهم تريشها أرواح الجان نحو صدور الأبرياء، فارتخت أعضاؤها وارتمت على مقعد حجري وأطرقت إلى الأرض

مطبقة أجفانها وهمست ببطء: نوحي يا أرض كعروس مؤتزرة بمسح على بعل صباها واشفق يا رب على جميع الأبرياء (يوئيل ص ١-٨٤).

وإنها لتنهض متماسكة كأنها فينيس صاعدة من وسط الأمواج وقد انبسط على محياها نور سماوي من عادة الآلام أن تكال به وجوه الصبايا إذا بلغت مداها من فلوبهن فضلاً عما هي عليه من الجمال الذي لم يكن منطبقاً على المقاييس التي وضعها البشر له. لم يكن جمالها في شعرها الذهبي ولا في عينيها السوداوين ولا في شفتيها القرمزتين ولا في بياض جسمها بل في حالة الطهر المحيطة بها ونبالة الروح الظاهرة عليها جمالها سائل أثيري كالذي يرى في ألوان قوس قزح ويشاهد في أشعة القمر ويشم في ارج الزهور، جمالها نابغ وأصحاب النبوغ تعساء.

نهضت أديل واستطردت السير وكلما مر بها إنسان تنشده نجيباً فلا يروى لها غليلاً إلى أن عزمت على العودة من هي أتت لو لم تر بالقرب منها رجلاً يقول لآخر واقف معه: لم يعرف القتيل إنما قبل أن تعروه سكنة الموت لفظ ثلاث كلمات فقط وهي: نجيب ارثوذكسي بريء. فجمدت في مكانها عند سماعها هذا الحديث وبفرائض مرتجفة مشت نحو المتحادثين وقالت وهي تحاول إخفاء تهيجها: ما الخبر يا سيدي؟ وماذا جرى؟ فأجابها أحدهما وقال متكلفاً الخطاب: يقال أن أحد رجال الجندرمة أطلق من غدارته رصاصة على رجل اسمه نجرب فأصابت منه مقتلاً قال هذا وتأبط ذراع رفيقه وتابعا سيرها مستغرقين في حديثها. أما أديل فعندما سمعت اسم زوجها أصابها نوع من الذهول وغشت عينيها ظلة تصيب المفاجئين عادة بنبأ منفجع

وسارت سير تلك النفوس الشقية التي أهملتها العناية فوهبتها الحياة وحرمتها العقل وإن الشابان ليلتفتان إليها خلسة فيقول الواحد لرفيقه: أنها مجنونة، ويستطردان سيرهما ويا حبذا لو كانت مجنونة لكانت نسيت ما بها، ولكنها بالعكس لم تكن بالمجنونة فإنها ما كانت تخطو بضع خطوات حتى اهتز جسمها وتمايلت تمايل السكران وصاحت بصوت منقطع أشبه شيء بحشرجة الصدر: رباه! رباه! لقد قتلوه! آه وازوجاه! قالت هذا وسقطت على الأرض لا تعي على شيء. ومضي عليها حين من الوقت وهي فاقدة الصواب، ضائعة الرشد، مغبونة الفؤاد إلى أن به يصر بها رجل عليه بزة ضابط وسيفه إلى فخذه يدعى سعيد بك كان قد ركب ذاك الطريق فاقترب منها، وقد أثّر فيه منظرٌ يمثل مصرع الإنسانية، فرأى امرأة امتد اصفرار شعرها إلى وجهها ودب سقم جفنها إلى صدرها وسرى نحول خصرها إلى جسمها، فجس نبضها نشعر بالحمى تدب في جسمها وحركته عوامل الشفقة إلى ايقاف مركبة لا أحد فيها مرت من ذلك المكان وعوّل على نقلها إلى بيتها غير أنه لما لم يقع على ما يهديه إلى معرفة اسم هذه المرأة التعيسة أو على مسكنها ضن بصباها وجمالها وبدلاً من أن ينقلها إلى المستشفى أمر الحوذي بنقلها إلى منزله حيث بلغه بعد بضعة وعشرين دقيقة ووضعها تحت عناية أخته المدعوة سلوى وخرج مسرعا ليحضر الطبيب.

حضر الطبيب بعد حين صيحة سعيد بك وأخذ يقلب المرأة وفي هذه الدقيقة سلمت سلوى رسالة وجدتها في حقيبة أديل فأخذها بلهفة وجعل يقرأ وعندما أتى على آخرها ورأى إمضاء «نجيب» خالجه شك أن الجريح المدعو نجيب الذي أطلق الشرطي الرصاصة عليه في ذلك

اليـوم وكـثر حديـث المـارة عنـه هـو زوجهـا، وأن مـا أوقـع هـذه المـرأة في تلـك الحـال إلا عندمـا فوجئـت بهـذا النبـأ الثقيـل الوطـأة، وبعـد أن بـين الطبيـب لسـعيد بـك وأختـه مـا يجـب أن تعالـج بـه المريضـة المحمومـة خـرج قاصـداً مسـتوصفه وأدركـه عـلى الاثـر سـعيد بـك ليـأتي بالعـلاج.

وبعـد بضعـة عـشر دقيقـة عـاد عـلى أعقابـه وبعـد أن أشـار إلى أختـه المحافظـة عـلى راحـة أديـل وبـذل مـا في الوسـع لتعزيتهـا إن هـي أفاقـت خـرج قاصـداً مركـز الشرطـة للسـؤال عـن الجريـح فقيـل لـه أنـه نقـل إلى المستشـفى فركـب عربـة مـا مـضى عليـه فيهـا بضـع دقائـق حتـى وقفـت بـه عنـد بابـه فترجـل ودخـل فـإذا هـو أمـام أحـد أطبـاء ذلـك المستشـفى فقـال لـه بعـد أن تبـادل وإيـاه التحيـة:

- هـل أتاكم جريج اليوم؟

- نعم

- وما اسمه؟

- نجيب

- هل لك أيها السـيد أن تسـمح لي برؤيته؟

- إنه توفي أيها السـيد

فقال سـعيد بك بصوت أبحه التأثر:

- وهـل ما تقوله حقيقي؟

- نعـم حقيقـي لا غش فيه لأن الرصاصة التـي أصابته لم تمهلها الحياة

- وهـل لك أن تهديني إلى جثته؟

فقال الطبيب وهو يظهر تأسـفه

- بقيـت مـده مطروحة هنا ولمـا لم تعرف هويتها حملت إلى المقبرة

- لقد دفن إذن؟

- نعم

- وتليـت عليه صلاة الموتى؟

- نعم

- عن يد من؟

- مـن يد كاهن ارثوذكسي

- وكيـف عرفتم مذهبه؟

- سـمعوه يقـول قبـل أن يلفـظ روحـه هاتـين اللفظتـين: نجيـب. ارثوذكـسي. وزاد عليهـما لفظـة بـريء

- وهـل قتل ظلماً وعدواناً؟

- في شرع قانـون الجندرمـة لم يقتل إلا عن حق

- والحقيقة؟

- الحقيقـة أنـه ليـس بجنـدي فـار وهبـه فـاراً فقتلـه في شرع الانسـانية ظلـم وعـدوان

- أراك يـا حضرة الطبيـب تتكلم حقاً وبحرية أفكار

- الحق يجب أن يقال لا أن يعرف فقط يا حضرة السيد ولكننا الآن لسنا في موقف دينونة وقضاء فلندع هذا البحث.

ولم يشأ سعيد بك أن يطيل البحث في هذا الشأن لأن الرسالة التي وجدتها أخته مع أديل تدل على أن نجيباً كان فاراً فقال للطبيب:

- عفواً يا سيدي فقد أزعجتك بكثرة الأسئلة

- لم تردني بها إلا ارتياحاً إليك يا سيدي

- استودعك الله إذن

- رافقتك السلامة

ودع سعيد بك الطبيب فصافحه ثم ركب العربة التي كانت في انتظاره عند مدخل المستشفى لتميم واجبه نحو المريضة.

وكانت أديل منذ خروج سعيد بك تغالب كيد الحمى في جسمها الضعيف فتتمايل على السرير وتتقلب ظهراً لبطن وقلبها يتمشى في صدرها تارة وبين جنبيها أخرى وهي تهذي من وطء الخمي بكلمات غريبة مقطعة تفزع من يسمعها. وفيما هي كذلك إذا بها قد ثاب إليها هدوءها وفتحت عينيها فجأة ورأت إلى جانبه سريرها فتاة لم تكن تعرفها فقالت:

- من أنت يا سيدتي؟

- أنا يا حبيبتي سلوى أخت سعيد بك الذي يعتني بلك ويسعي إلى شفائك فكوني مطمئنة.

- آه أمريضة أنا حقيقة؟ وهو؟ علتم عنه شيئاً؟

- من هو؟

- نجيب.

تظاهرت سلوى بعدم فهم كلامها، فقات أديل: -

- إذن عليَّ أن أنهض الآن لأجده.

وأخذت تجهد نفسها للنزول عن السرير غير أن الفتاة منعتها قائلة أن نهوضك مستحيل يا سيدتي لأن الطبيب وأخي أوصياني بالاعتناء بك وأن أقل حركة تأتينها تضر بصحتك.

- ولكن أين هو الآن؟ أنه ولا شك ينتظرني الآن إما في دائرة الشرطة أو في المستشفى. إنه وحده.. ولكن من يدري إنهم هالوا على جثته التراب.. آه! نجيب.. إنه كان يحبني.. أأتركه وحده؟ سيدتي استحلفك بكل عزيز لديك ألا تمنعيني! دعيني أنهض! ورسالته؟ رسالته العزيزة؟ أين هي؟ هل سلبوني إياها أيضاً؟ إنها الأثر الوحيد الذي بقي لي بعده.. أعيدوها عليّ لأتلوها ثانية:

وجعلت أديل تنتحب كالطفل: فقالت سلوى والخوف يخفر أحشائها وكانت جاثية وقتئذ إلى جانب السرير: سيدتي! دعي البكاء فإنني أتألم لبكائك. وعليك بالاهتمام بصحتك. إننا نحبك يا أديل ونغار عليك فلا تدعي الحزن يقف بينك وبين الشفاء. نعم سوف تشفين إن شاء الله..

واستولى على اديل سكوت استقام بضع ثوان ثم تلاه هذيان لم يكن إلا نتيجة تلك الحمى وجعلت تقول: نعم إنك مصيبة يا ولدي سوف

أشـفي وأقـوى عـلى النهـوض وحينئـذ أذهـب إلى حيـث هـو موجـود.. أليـس كـذاك؟ أتتركينـي اذهـب إليـه؟ سأسـعى في دفنـه أيضـاً.. في دفـن حبيبـي التعيـس نجيـب.. ذاك الـذي كنـت أحبـه وسـأحبه إلى الأبـد! إلهـي! ربـاه! هـل أعـود وأراه؟

وفيـما هـي عـلى تلـك الحـال دخـل الضابـط فلـم يشـأ أن يظهـر أمامهـا خوفـاً مـن أن تسـأله عـما فعـل فأشـار إلى أختـه أن تعتنـي بهـا اعتناءهـا بـه إلى أن كان اليـوم التـالي حيـث دخـل غرفتهـا وتفـرس في وجههـا فـرأى بـوارق الشـفاء تلـوج عليـه فلـم يجـد بـداً إذ ذاك مـن تعزيتهـا وتهدئـة روعهـا فقـص عليهـا كيـف ذهـب إلى المستشـفى وكيـف دفـن نجيـب باعتنـاء واحتفـاء دينـي.. أمـا هـي فكانـت تسـمع دون أن يخالجهـا شـك في مـوت زوجهـا فسـلمت أمرهـا للـه وشـكرت الضابـط عـلى صنيعـه بدمـوع سـالت عـلى خديهـا.

وفي اليـوم الأول مـن ابلالهـا يممـت صحبـة سـلوى المقـبرة في صهيـون لتـزور قـبر نجيـب «والحبيـب يـزار» حيـث جثـت عـلى القـبر وجعلـت تبـكي وتصـلي.

وفي مسـاء ذلـك اليـوم أعلنـت أديـل لسـعيد بـك وأختـه عزمهـا عـلى مغادرتهـما إياهـما غـداً فقالـت لهـا سـلوى: إذا تريديـن أن تتركينـا يـا أديـل يـا حبيبتـي؟

فأجابـت الأرملـة: لأن لأخيـك يـا أختـي ديـن لا أقـدر عـلى ايفائـه طـول حيـاتي فكيـف أكـون عالـة عليـه أيضـاً؟ لم يبـق لي شيء في هـذا العـالم اسـتند عليـه لذلـك أزمعـت عـلى دخـول الديـر وتكريـس هـذه النفـس للـه.

فقالت سلوى - دخول الدير؟ الأديرة يا أديل ثكنات كسل وملاجئ بطالة ومواطن شكوك ومصدر اختلافات وانقسامات. في تلال الأديار سجناء طوعيون وسجينات شقيات طوعيات لا راحة لك معهن.

إن سكان الأديرة عالة على كامل الانسانية وفروعها يابسة في دوحة الهيئة الاجتماعية.

إننا نحبك يا سلمى وسنحبك يا حبيبتي إلى الأبد. أمكثي عندنا حتى إذا ما وقعت مريضة أنا أيضاً تمرضيني بدورك لأنني وأخي وحيدان غريبان في هذا البلد المقدس وأخي شيخ أرمل كما ترين ينظر إلى الحياة نظر ناسك أو فيلسوف وليس بكثير عليه أن يرى إلى جانبه أختين تحبانه وتقومان بشيخوخته.

ولم تجب اديل بشيء على السيدة سلوى حتى كان اليوم الثاني حيث قال لها سعيد بك: اسمعي يا ابنتي امكثي عندنا علّ اختي سلوى تنهي على يدك دروسها وعلك تعلمينها كيف يجب أن تكون صالحة فاضلة نظيرك.

ولم يسع أديل حينئذ إلا أن تجيبه إلى سوله واعتباراً من ذلك اليوم الذي اختطف فيه زوجها أصبحت أديل ذات أب وأخت.

لو رافق القارئ سعيد بك إلى المستشفى لأفاده أن الجثة التي كان ينشدها هي جثة نجيب التاجر وليست جثة نجيب زوج أديل ولما كانت مرافقته اياه ليس بالأمر المستطاع صار دفن نجيب التاجر نائباً عن نجيب أديل دون أن يشعر سعيد بك واديل بهذه النيابة.

امـا وقـد حـان الوقـت ليعـرف القـارئ مـن هـو سـعيد بـك، وقيـل أن يسترسـل بنـا القلـم في تصويـر خلـق الرجـل رأيـت أن أصـور خلقـه فأقـول:

هـذا الضابـط سـوري عـربي ربعـة في الرجـال كان واقفـاً عـلى أبـواب السـنين طويـل القامـة عريـض مـا بـين المنكبـين خفيـف المعارضـين مـدور وجـه لوجتـه الشـمس، حسـن الضحـك، مفـوه، ينظـر إلى الشـخص بعينيـه

الواسـعتين فيستشـف مـا في أعـماق صـدره، لـه تأثـير عـلى محدثـه، فيعـرف بقـوة فراسـته أخلاقـه وجميـع مـا انطـوى عليـه.

ذلـك هـو خلـق الرجـل وأمـا خُلقـه فقـد كان قائمـاً عـلى احـترام النفـوس الشريفـة ومقـت المتذبذبـين.

وهـو مسـماح كريـم محـترم للصغـير والكبـير عـفّ لـه غـيرة قصـوى عـلى العـرض، سريرتـه في بيـاض صحيفتـه فعّـال للخـير منـاع للـشر، وقـور، كثـير التفكـير، إذا بـدرت منـه بـادرة غضـب كفـر عنهـا حـالاً بابتسـامة بسـتر تحتهـا همـوم صـدره، يلتمـن حسـن الاحدوثـة ويعمـل وهـو عـلى كـمال اليقـين بانتفـاع النـاس بعمـل ويراقـب اللـه والنـاس في ذلـك العمـل، وكثـيراً مـا كان يتمثـل يقـول المهلـب ابـن ابي صفـرة: «الحيـاة خـير مـن المـوت والثنـاء الحسـن خـير مـن الحيـاة وأعطيـت مـا لم يعطـه أحـد لأحببـت أن تكـون لي أذن اسـمع بهـا مـا يقـال في غـداً إذا مـت» وهـو مـع مـا هـو عليـه مـن شـدة الحـول رقيـق القلـب يجـد مـن الألم لغـيره مـا يجـده لنفسـه.

كان يقطـن في مسـقط رأسـه حلـب مـع أختـه الصبيـة وولـد لـه وحيـد عزيـز فقـد أمـه قبـل أن يتجـاوز العـاشرة.

شـهد مـع ولـده حـرب البلقـان ونـال منهـا في سـبيل الدفـاع عـن بيضـة الوطـن جروحـاً أودت بحيـاة الابـن وكادت تـودي بحيـاة الأب لـولا عطـف اللـه.

وبعـد أن شـهرت الحـرب الكـبرى واشـتبكت تركيـا فيهـا إلى جانـب ألمانيـا قـدم مـع مـن قـدم مـن الجيـوش لشـن الغـارة عـلى مـصر، وأبـت أختـه لحبهـا لـه إلا أن ترافقـه في حلـه وترحالـه فسـبقته إلى القـدس حيـث سـكنت بجـوار إحـدى الأسر العريقـة في النسـب.

ووصـل سـعيد بالـك مـع عسـكره القـدس ومنهـا إلى بريـة التيـه، مهلكـة بنـي اسرائيـل، حيـث اتحـدت جنـوده بعـد سـفر طويـل بالجنـود المعسـكرة في بـئر السـبع، وفي شـهر ينايـر سـنة ١٩١٥ أصـدر قائـد الجيـوش العامـة في فلسـطين جـمال باشـا أمـره باجتيـاز حـدود شـبه جزيـرة سـينا فاجتازهـا ٢٥ ألـف مقاتـل بقيـادة الجـنرال فونكـرس الألمـاني عـن طريـق نخـل وأحتـل قطيـه في ٢٩ منـه.

واسـتأنف الزحـف قاصـداً قنـاة السـويس. وفي ٣٠ فبرايـر بلغـت طلائـع الجيـش المهاجـم ضفـة القنـاة الشرقيـة ونشـبت بينهـم وبـين حماتهـا: معركـة شـديدة أسـفرت عـن انكسـار المهاجمـين ورجوعهـم يتعـثرون بأذيـال الخيبـة والفشـل وقـد خـسروا عـدداً كبـيراً مـن القتـلى والجرحـى والأسرى.

رجعـت البقيـة الباقيـة مـن الجيـش العثـماني بعـد معركـة القنـاة بصفقـة المغبـون وبيهـم الضابـط سـعيد بـك وعسـكروا خـارج القـدس إلى أن كان يـوم ركـب فيـه ذلـك الضابـط الطريـق للذهـاب إلى القـدس وعـثر فيـه عـلى

أديـل مطروحـة عـلى الأرض لا تعـي عـلى شيء فعمـل مـا عمـل كـما مـر بحـضرة القـارئ.

مـر عـلى هـذه الحادثـة خمسـة عـشر يومـاً ونيـف إلى أن صـدر الأمـر لقائـد هـؤلاء الجنـود بالسـفر. أوصى الضابـط سـعيد أختـه بالإقامـة مـع أديـل في القـدس، ومـا كاد يتـوفى الليـل النهـار حتـى رأيتـه مـع جنـوده عـلى الطريـق كل بحاجـه ولباناتـه العسـكرية ووجهتهـم الشـمال.

الفصل السادس

(بين الهدى والغواية)

•••

في أحد اسواق مدية حلب الكبرى مخزن تباع فيه الأقمشة والاجواخ على اختلاف أنواعها يخصص رجلاً من أغنياء تلك المدينة يدعي موسى دخله بعد ظهر يوم ١٠ أيلول سنة ١٩١٥ شاب ببزة ضابط وعلى جنبه اليسرى سيف مقبضه لامعة وسأل صاحبة قائلاً:

- هل لك يا سيدي أن تهديني إلى غرفة للإجار

- ولمن يا سيدي؟

- لي

فقال موسى وهو يقدم لمحدثه مقعداً من الخيزران

- تفضل واجلس يا سيدي فإن عندي غرفة جميلة سأريكها بعد نصف ساعة إذا شئت

- شكراً لك يا سيدي

- وهل تريدها فارغة أم مؤثثة

- مؤثثة

- أتصحبك عائلة أم أنت يا مولاي غير متزوج؟

- سأسكنها وحدي لأن لا عائلة لي هنا

- إذن لا بد من شخص مهتم بترتيب الغرفة؟

- مهتـم بها جندي خصص لخدمتي

- إن ابنتـي عـلى جانـب عظيـم مـن الترتيـب وهـي إذا شـئت بـكل سرور تقـوم بذلـك

- إني لك ولها من الشـاكرين

- أراك لسـت من هذه الديار يا سيدي

- نعم

- وهل تسـمح لي بالسـؤال عن القطر الذي تنتمي إليه؟

- فلسطين

- والبلدة؟

- القدس

- القدس؟

- نعم

- إن أخـي وخطيب ابنتـي يقيمان فيها وهل تعرفهما؟

- وما اسـم أخيك ولقبه؟

- نجيب التاجر

فتنهـد الضابط إذ ذاك وقال:

- نعـم أعرفـه وقـد وضعـت عنـده والـدتي وهـي في قيـد الحيـاة مبلغـاً مـن المـال فطلبتـه منـه عـلى اثـر اشـهار الحـرب العموميـة فأبـاه عليهـا مدعيـاً

بالإفلاس وكان السبب في..

- في أي شيء؟ وعلام تتنهد يا سيدي؟

- على أمر لا قبل لي بإباحته

- وهل تعرف السيد كامل خطيب سعاد ابنتي

- وما هي مهنته؟

- سيق جندياً من حلب مع الجيش الزاحف على قناة السويس (حيث لم يُقبل بدله النقدي) وبقي في القدس يشغل وظيفة كاتب بديوان حربها العرفي

- لا أعرفه لسوء الحظ وهيا بنا نذهب لرؤية الغرفة إذا أحببت فقد مضت نصف الساعة

- هيا بنا يا سيدي.

وقام السيد موسى إلى جانب المخزن فاقفله والضابط ينتظره خارجاً قد أطرق إلى الأرض ولاحت عليه علامات التأمل العميق.

لا بد للقارئ أن يكون قد عرف ذلك الضابط عندما ذكر لصاحب المخزن أمره مع أخيه كما مر بنا في أول الرواية وعرف أنه هو نجيب زوج أديل، وكأن هذا الحديث قد أعاد إلى قلبه تذكاراته الماضية فوقف وقفة الساكت المتكلم الذي ينم سكونه عن انفعالات نفسه الكئيبة وينطق انفعاله عن شعوره بذنب اقترفه جعله معذباً كلما أوى إلى نفسه وتعرض لمحكمة ضميره.

هـذا هـو نجيـب، قـذف بـه القطـار يـوم حملـه مـن القـدس ووضعـه في مدينـة حلـب حيـث أسرع في تلقـي التمرينـات العسـكرية والتمـرن عـلى حمـل السـلاح حتـى ظهـرت لضابطـه نجابتـه فرقـي إلى درجـة رئيـس عـشرة وصـار فيـما بعـد ذلـك الضابـط الـذي رأيناه يسـأل صاحـب المخـزن السـيد مـوسى عـن غرفـة يسـتأجرها.

سـار نجيـب مـع مـوسى شرقـي مدينـة حلـب حتـى بلغـا بيتـاً جميـلاً تحـوط بـه حديقـة غنـاء فدخلـه وهـو معجـب بجـمال موقعـه الطبيعـي وصمـم عـلى السـكن فيـه مهـما كلفـه مـن الأجـرة. ثـم أراه السـيد مـوسى الغرفـة المعـدة للإيجـار فلـم تقـع عينـه عـلى أجمـل منهـا وبعـد أن اتفقـا عـلى الأجـرة وقدرهـا خمـس لـيرات بنقنـوط عثـماني سـار السـيد مـوسى بنجيـب إلى قاعـة الأضيـاف حيـث أقبـل لتحيتـه امـرأة ضخمـة الجثـة تبلـغ الخمسـين مـن عمرهـا هـي زوجـة مـوسى تتبعهـا ابنتـه الصبيـة وعمرهـا ثمـاني عـشرة ربيعـاً، ذات وجـه اسـتجمع الحسـن وعينـين شـهلاوين يسـيلان لطفـاً وجاذبيـة ومـا كان أشـد سرورهـا عندهـا علـما أنـه قـادم مـن بنـد يقيـم فيـه نجيـب وكامـل.

وبعـد حديـث لم يتجـاوز العشريـن دقيقـة شـعر نجيـب بحاجـة إلى الخلـو بنفسـه والاسـتلقاء عـلى سريـر غـير عسـكري فاسـتأذن وكانـت السـاعة إذ ذاك السـابعة مسـاء ويمـم الغرفـة المعـدة لـه مغلقـاً بابهـا عـلى اثـره، حيـث ارتمـى عـلى مقعـد مكسـو بالمخمـل كريشـة تلعـب بهـا ريـاح الهـم والقلـق. وفيـما هـو كـذاك إذا بقـرع خفيـف عـلى بـاب غرفتـه ففتحـه فـإذا بسـعاد ابنـة السـيد مـوسى واقفـة وبيدهـا إنـاء بلـوري مملـوء مـاء وكأس فقالـت

لـه وهـو يحـاول أن يعيـد إليـه مـا شـتته القلـق مـن عقلـه.

- عفـوك يا سـيدي لقد عكـرت عليك فكرك فهذا إناء الماء والكأس.

وانقلبـت سـعادة مغلقـة وراءهـا البـاب بلطـف ومرسـلة إلى نجيـب خيوطـاً مـن سـحر عيونهـا.

لم تكـن هـذه العيـون ومـا فيهـا مـن السـحر بمثنيـة عـزم نجيـب عـن الاستسـلام لمـا تناولـه مـن الأفـكار والهواجـس وقتئـذ، ولا بمحركـة ذاك القلـب الـذي يخفـق بـين جنبيـه لا مـن حـب بـل مـن ألم، ولا بمنحولـة نظـرة إلى مـلاك جـمال اتخـذ شـكل امـرأة لأن المـرء مهـما كان شـديد الاحسـاس فانـه ينقلـب إلي جـماد عنـد استسـلامه لهـم لا يُحكِّـم عقلـه فيـه ولا يعالجـه بالصـبر وعـدم الصـبر عـلى المصيبـة مصيبـة ثانيـة. وكيـف لا يبيـت مـروع القـاب معـذب الفـؤاد تعـب الوجـدان مـن يشـعر مـن نفسـه بذنـب اقترفـه نحـو مـن لم يذنـب إليـه بـل أحبـه وأحسـن عشرتـه. نعـم إن القلـب ليخضـع لسـلطان تقريـع الضمـير فيدعـوه إلى الانكـماش كـما يدعـو العـبء الثقيـل الظهـور إلى الانحنـاء.

جـرد نجيـب مـن نفسـه قاضيـاً يناقـش نفسـه الحسـاب وجعـل ينظـر إلى ماضيـه نظـرة الحكيـم إلى ضلالـة الأحمـق فعلـم أنـه أتى باستسـلامه لليـأس وتركـه زوجتـه أمـراً إداً وذنبـاً لا يغفـر لـه. وكان كلـما حـدا بـه التأمـل إلى الاقـتراب مـن الحقيقـة والاسـتئناس إلى الهـدى تتزايـل أعضـاؤه فرقـاً وترتعـد نفسـه جزعـاً.

مـرّ عـلى نجيـب سـاعتان وهـو عـلى مـا وصفنـاه مـن القلـق لا ينـزل النـوم بأهـداب عينيـه إلى أن تنبـه عـلى حـين غـرة وتنهـد تنهيـدة صعـدت مـن

أعماق صدره أخرج معها من بين شفتيه لفضلة «أديل» ثم جلس إلى المائدة وقبض على القلم بيد مرتعشة وجعل يكتب:

«حبيبتي أديل»

أكتب لك ولا أعلم أأنت في قيد الحياة أم لا؟ القلب الذي يملي علي الآن ما أكتب هو هو الذي أملى علي ما كتبته لك يوم تركت البيت متسللاً تحت جنح ذلك الليل المشؤوم. حبي لك هو الذي أملى علي ما كتبت ويملي علي ما أكتب الآن والفرق بين الكتابين أن العامل على الأول كان اليأس والعامل على الثاني هو الأمل. يئست يا أديل من حصولك على السعادة ما دمت معي فأبيت أن اسمع لملاك بريء أحبه أن يتعذب مع رجل أبت السعادة أن ترافقه فتركته على طائر الوسادة تحوم فوقه ويظلله بجناحيه، ولكن آه يا أديل للسن والتجارب تأثير على عقل الشاب فهو كلما مرت السنون عليه وتدرج في مراقي الخطوب ازداد حكمة وعقلاً وصحا من غيبوبة ضلال كان يحسبها هدى. صحوت الآن يا أديل وإني أرى أحشائي تستحم بأشعة الأمل المحببة ورأيت نفسي مجرماً بإزائك وأدركت أن ما اتيته ليس بعمل شاب يحب زوجته ويتمنى لها السعادة وأن ليس بهذا تسر وتكافأ المرأة المخلصة المحبة لزوجها. أقول لك ذلك لأن قلبي يملي علي شعورك أنك تتمثلين لعيني صبية تلبسين الحداد شارة التعاسة والحزن على بعل صباها، على شاب ليس بأهل لك، لأنه أظهر الضعف والعجز عن صد هجمات الخطوب فلاذ بالهزيمة والفرار من وجهها ولم يقف وقفة الشجاع يناضل عن نفسه وعن الصبية التي يحبها.

لا أريد أن أطيل الحديث معك الآن وحسبي قصاصاً ما أعانيه من تبكيت الضمير وعذاب الوجدان. فقط اعتصي بالصبر وعليك بالأمل وثقي أن الله الذي يعلم ما بالقلوب ويصفح عن ماضي سذاجتي سيجمعنا معاً نعم تأملي!.

بعد أن تنتهي من تلاوة هذه الرسالة تذهبين إلى بيت السيد نجيب التاجر الذي أودعت عنده والدتي المثلثة الرحمات المبلغ الذي تعهدينه وهو يسلمك خمسين ليرة ذهباً عثمانياً أرسلتها لك حوالة عليه بواسطة أخيه في حلب، البلد الذي اكتب لك منه، والذي سنتركه عما قليل.

أعانقك يا أديل يا حبيبتي وأقول إلى الملتقى القريب.

«نجيب»

وبعد أن ختم الرسالة رمى بالقلم إلى الطاولة واستعد لنوم أخضعه الغم واتعب لسلطانه.

وفي واليوم الثاني بكر بكور الغراب وهو يشعر بضعف واسترخاء في جسمه وسلم صاحب البيت المبلغ الذي ذكره في رسالته لاديل ورجاه كي يكتب هو أيضاً لأخيه بشأن ذلك وأن يرسل كتابه لزوجته صحبة البريد مؤمناً عليه ثم انقلب إلى غرفته شاكراً إياه.

وكانت سعاد حينئذ في سريرها تسترق أذنها لسماع الحديث شأن بعض الصبايا اللاتي عندما يبصرن بشاب تدعوهن النظرة الاولى إليه إلى تحريك ما في قلوبهن من الميل نحوه والرغبة في الوقوف على شيء

مـن ترجمـة حياتـه سـيما إذا كان مـن رجـال السـيف، أو كبعـض الصبايـا الـلاتي يسرهـن التعـرف بـكل شـاب لمجـرد كونـه شـاباً.

ومـا كادت تـدق سـاعة الحائـط التاسـعة حتـى سـمع عـلى بـاب نجيـب طـرق خفيـف دخلـت عـلى إثـره سـعاد وقالـت:

- سـعدت صباحـا يـا سـيدي! هـذا المـاء وهـذه المنشـفة فهـل تحتـاج إلى شيء آخـر؟

فحياهـا الضابـط بـأرق مـن تحتهـا لـه وهـو يخفـي مـا بـه مـن القلـق والحـيرة وقـال:

- سـعدت صباحا يا سـيدتي! إني أشكر لطفك وعنايتك بي.

- أرى شـيئاً مـن الضعـف والاسـترخاء عـلى سـيدي فهـل لم يحمـد منامـه الليلـة؟

- نعـم يا سـيدتي وقد مرّ علي هزيعان مـن الليل لا ينزل النوم بأجفاني.

- نعـم وقـد رأيـت شـعاع مصباحـك يـضيء خـارج غرفتـك مـن خـلال أسـكفة البـاب حتـى منتصـف الليـل، فهـل هـذا لحداثـة عهـدك بالغرفـة أم هنالـك أمـر آخـر؟.

فنظـر نجيـب نظـرة المسـتوقف ورأى أن كلامـاً بتحـير بـين شـدقيه فقـال نعـم أمـر آخـر يـا سـيدتي.

- عفـوك يـا سـيدي، إن شـاباً نظـيرك يغـادر وطنـه ويعتقـل الحسـام تـاركاً أهلـه وذويـه ولربمـا مـن هـو أعـز مـن أهلـه ليخـوض غمـرات الحـرب لحـري بالقلـق والكآبـة ولكـن تصـبر يـا سـيدي واتخـذ جسـارتي هـذه عـلى

مخاطبتي إياك بأمر يخص شخصك دليلاً على ما ولدته نظرتي الأولى إليك من الاعجاب بك والعطف عليك فالإنسان عمر واحد وشباب واحد فليس من الحكمة أن يضحيهما على مذبح التذكارات الماضية وله أينما حل معزّ ومواسٍ.

وكان كلام سعاد معيداً على قلب حب ماضي عهده باديل، أديل التي تحسب نفسها الآن أرملة، فلم يتمالك رغم تكتمه من الاستسلام للذهول والحيرة ولا من ايقاف نهدة فجائية خرجت من أعماق صدره.

واستطردت إذ ذاك سعاد كلامها قائلة:

- إني أراك تتألم يا سيدي؟

- نعم يا سيدتي

- ومما؟

- من أفكاري

- وما الداعي لتألم افكارك؟

- فراق حبيب حملني حبي له على أن أموت ليحيا هو

- نعم لا عجب إذا كان الحب هو السر وكفى بالحب داء نعم ولا خير في قلب يخفق بغير حب، ولا خير في حياة يحياها المرء بغير قلب.

اتفق جميع الذين لاحظوا المرأة ودرسوا أخلاقها على حقيقة لا ينكرها إلا من ينكر الشمس وهي سعيها الفطري للفت الأنظار إليها واستمالة القلوب بطريق التيه والدلال وهو ما يعبر عنه عند الافرنج بكلمة

Coqueterie ولا سيما أنظار الرجال وقلوبهم، ولذا فأول مطمح للمرأة هو أن تحوز اعجاب الرجال بجمالها وإذا لم يتيسر لها الجمال توخت في نفسها الرشاقة أو الحذاقة في الحديث أو التفنن في اللباس. هذا هو سلاحها الوحيد، فلا لذة تعادل اللذة التي توصلها إلى التأثير في نفس الرجل كذلك كانت سعاد أثناء حديثها مع نجيب الذي كان يقابل ذلك التيه والدلال ما يقابلهما في الرجال من الغطرسة والاعتداد بالنفس.

إن الرجل قلما يقاوم ما في نفسه من رغبة وشهوة لكونه صاحب القوة والسيادة، وبالرغم من هذا كله وعن كون الرجل كما يقول علماء النفس الحديثون اقل من النساء تعرضاً للاستهواء، فإن هذه المظاهر أخذت رويداً رويداً تبعد نجيباً عن القدس وتحول أفكاره عن سلمى. نعم أديل جميلة كسعاد ولكن هذه المرأة فاقتها باثنتين وهي الغنى والغرابة. أديل امرأة جميلة الباطن والظاهر أما هذه جميلة الظاهر فقط تلك امرأة فاضلة مرحباً بها أختاً ومرحباً بها زوجة ومرحباً بها أماً إذ بها يشاد مجد الأمم، أما هذه فهي كما قال الفونس دوده كالولد الطائش بكل ما فيه من خبث ورداءة وكذب وجبانة.

نظر نجيب إلى محادثته وهي تحاول كتمان ما في نفسها من الانفعال والميل إلى الاستسلام لشؤون الهوى فقال:

- نعم يا سيدتي الحب هو شغل الرجل الشاغل. إذا لم يستظهر أمياله النفسية ولكنه مرجع لذات المرأة أيضاً.

- بل هو جزء حياة الرجل وكل حياة المرأة ولكن هل لك أن تجيبني ولو كان سؤالي هذا من باب فضول المرأة، أمفارق زوجة أنت يا سيدي أم خليلة؟

- زوجة.

- إذا كان زوجة فكيف إذا مت أنت تحيا هي؟ إن في ذلك لعجباً.

- إن في سؤالك هذا إثارة لجروح لم تندمل في قلبي بعد، فاعذريني إذا نكلت من الاجابة عليه ولنتجاوز هذا الموضوع إلى سواه يا سيدتي.

- إذا كنت أنا السبب في إثارة هذه الجروح فالواجب يفرض علي ضمدها، فما السبيل إلى ذلك يا سيدي؟

فتنهد نجيب وقال:

- عفوك يا سيدتي وحاشا لك أن تكوني أنت السبب. إنما عنيت بذلك أن صوتك الشجي قد أثار أفكاراً محزنة كانت كامنة في أعماق فؤادي، وتذكارات مؤلمة قد فسحت مكاناً للآمال بين جوانحي.

فنظرت سعاد إذ ذاك إلى نجيب مجيبة إياه بابتسامة ارتسمت على ثغرها وقالت بلهجة ممزوجة بشيء من التوبيخ:

- أطائشة أنا أم حمقاء حتى تظنني غير قادرة على القيام بهذا العمل المقدس؟ إنك مغروز يا سيدي! إن الله قد خص المرأة بقوة غريبة تحمل الرجل على نسيان ماضي أحزانه ليحيى مستقبل آماله، أما وقد حصلت على نصيبي من هذه القوة فمر بما تريد. إن لك عندي أنباء حب جديد أشبه شيء بنسمات السحر تهبك السلوان والسعادة.

فتنهد نجيب وسمع فجأة صوتاً خارج الغرفة بنادي سعاد فإذا هو صوت والدتها فما كان من الصبية إلا أن أخذت على يده ضاغطة عليها وناظرة إليه بعينين مريضتين بنيران كوامن الحب وخرجت قائلة: للحديث تتمة يا سيدي.

عندما يأتي فصل الربيع تكسو المقابر حافظة الموتى زهور جميلة وتملأ القلوب حافظة التذكارات أصاليل جديدة. وعندما نرى شمس الربيع تكسوا الأشجار بأوراقها الأولى ننسى اوراق الخريف الذوابة وأغصان الشتاء العارية، كذلك تنسى النفس أحزانها الماضية.

رأى نجيب نفسه لأول مرة منذ مغادرته بيته وانتقاله إلى معيشة الجندية، في غرفة في غير الثكنة والخيمة، أمام فتاة جميلة هي غير ذلك الجندي المعين لخدمته، فألقى بنفسه بين يدي العناية والصدف، تديره كيف شاءت إلا أنه بالرغم عن هذه المؤثرات لم يلبث أن عاد إلى رشده والتأمل في موقفه مع هذه الصبية، وأنه ليقول في نفسه ما لهذه الشابة ذات الرجل تخوض مع رجل ذي امرأة في بحث غرامي؟ أغاوية هي أم ساحرة؟ أم هي أحد اللائي جنى عليهن الزواج القهري فذهبن هذا المذهب؟ فإن كانت الأولى فهي خائنة خطيبها، جانية على نسلها، يحق فيها القول: هذي التي ترجم لا الزانية. وإن كانت الثانية فما أحراها أن تذهب هذا المذهب مع شاب غير مرتبط بعهد ولم تملأ أديل ما بين ضلوعه؟ إذا كانت هذه الصبية المرأة الثانية فما كان أحراها أن تجاهر بمبدأها هذا وتتمرد على شريعة هذا الزواج الجائر وتقطع رباطاً شدتها به إلى جانب رجل لم يصطفه الله

ليكـون شريـكاً لحياتهـا وتتصـل بشـاب ليـس بـذي زوجـة اختارتـه السـماء ليكـون بلسـماً لجروحهـا وراحـاً لروحهـا إلا أن تخـادع رجلهـا مظهـرة لـه الوفـاء في الجهـر مسـلمة بـين يديـه جسـدها ومشـبعة إيـاه مـن خبـزه وخيراتـه ونفسـها نائيـة عنـه تطلـب عشـاقاً غـيره تطفـئ بلقاهـم نـيران لذاتهـا وشـعلة شـهواتها. لـو كانـت الثانيـة وفعلـت ذاك لكانـت شريفـة في نظـر السـماء كبـيرة في عينـي رجلهـا ولـو احتقرتهـا شرائـع الأرض ونبذتهـا البشريـة مـن جامعتهـا، ولأن تدعـى غاويـة عاهـرة في نظـر شرائـع الأرض الفاسـدة خـير مـن أن تكـون خائنـة غـادرة في نظـر السـماء. غـير أن غرابتـي هـذه ليسـت بأشـد مـن غرابتـي مـن صاحـب البيـت حـين عـرض عـلي هـذه الغرفـة وخـصّ هـذه الصبيـة لخدمتـي، فهـو إمـا أن يكـون قـد أمـن غائلـة شـاب مـن حملـة السـيف يجهـل ادابـه ولا يعـرف ترجمـة حياتـه فسـمح لـه بـأن يدخـل بيتـاً سـوف يخـرج منـه دون أن يصمـه بوصمـة عـار ـ وإمـا أن يكـون عالمـاً مسـلك ابنتـه فحملـه حبـه للـمال مـع مـا هـو عليـه مـن الغنـي عـلى غـض الطـرف لقـاء قيمـة زهيـدة يتقاضاهـا بـدوس العـرض وتضحيـة الـشرف عـلى مذبـح الغوايـة وإمـا أن يكـون جاهـلاً مسـلك ابنتـه غـير واقـف عـلى أفكارهـا وأميالهـا. فـإن كان الأول فهـو رجـل في منتهـى البسـاطة والسـذاجة تمسـك بنصـف الآيـة القائلـة «كونـوا ودعـاء كالحـمام وحكـماء كالحيـات» وتـرك النصـف الآخـر. وإن كان الثـاني فهـو عضـو فاسـد في جسـم العائلـة الإنسـانية يجـب أن يقطـع خشـية أن تـسري عـدواه إلى غـيره بـل زنديـق أحمـق عـلى الجـلاد أن يحـز رأسـه دون أن يتلطـخ برشـاش دمـه لأن دمـه لا يطهـر. وإن كان الثالـث فهـو مغفـل جاهـل يشـفع بعملـه جهلـه ولـه مـن غفلتـه عذيـر. كثـيرون مـن هـم كهـذا الرجـل، وكثـيرات

مـن هـن كهـذه الصبيـة مـن المخطوبـات والمتزوجـات... ومـا أكـثر الجنـود والشـبان الذيـن يدخلـون البيـوت الآمنـة في هـذه الحـرب ثـم يخرجـون منهـا تاركـين نقطـة سـوداء في جبـين سـاكنيها. ولكـن نجيـب ككل شـاب في ربيـع الحيـاة لـه أديـل تخلـص لـه ويخلـص لهـا فهـو خـارج مـن حكمهـم، بعيـد عـن مجاراتهـم في فسـادهم ومحاكاتهـم في تسـفل أخلاقهـم... آه يـا أديـل أحـنّ إلى اخلاصـك وأتـوق إلى الهـدى والفضيلـة المتسربلـة أنـت بهـما! لهفـي عـلى تعزيـة قطفـت ثمارهـا بقـربي منـك، إني أندبهـا وأبكيهـا وأحـن إليهـا حنـين الليـل إلى مطلـع الفجـر والجـدب إلى ديمـة القطـر.

وتنبـه نجيـب مـن هواجسـه عـلى حـين غـرّة عندمـا سـمع وقـع خطـىً تقـارب مـن بـاب غرفتـه هـي خطـى طفـل في الرابعـة مـن عمـره هـو ابـن صاحـب البيـت وقـد حـرك مـا في قلبـه مـن العواطـف صوتـه الملائـكي ومناغاتـه المحاكيـة وقتئـذ مناغـاة الطـير المالئـة حديقـة البيـت، المترنمـة فـوق أزاهـر الأغصـان المفتحـة أمـام بـوادر الربيـع فعـاد إلى هواجسـه وهـو لا يـدري خاليـاً بنفسـة ومسـاراً إياهـا بجـواه وأحزانـه وذارفـاً الدمـوع مـبرداً تلـك الغلـة التـي تعتلـج في صـدره نحـو أديـل... غـير أن سـاعة الحائـط لم تطـل عليـه تأملاتـه عندمـا دقـت التاسـعة، فأرتـدي ثيابـه واعتقـل حسـامه وخـرج مـن البيـت بعـد أن تنـاول الصبـوح الـذي أحضرتـه لـه سـعاد ويمـم المعسـكر لتأديـة مـا تفرضـه عليـه الجنديـة.

الفصل السابع
(فهي شيطان إذا أفسدتها)

•••

ورد في الأمثال السائرة: كل ممنوع مرغوب وهو قول ينطبق على النساء والرجال معاً، غير أن جاذبية الثمرة الممنوعة هي أشد تأثير على المرأة منها على الرجل، فما حرم عليها حبه يجذبها ويستميلها لأنها لقلة أعمالها ومشاغلها أضعف مقاومة للفتنة والتجربة وكثيراً ما يدعو التحريم إلى عدم التمسك بالمحرم والحث عليه. قال مونتاين الكاتب الفرنسي «عرفت مئات من النساء تستطيع حملهن على عض الحديد الحامي ولا تستطيع اقناعهن بالتخلي عن رأي أبدينه ساعة الغضب». ولعل هذا العناد نتيجة ما طبعت عليه المرأة من الضعف وقد قيل: العناد ثبات الضعفاء.

عندما سمعت سعاد صوت والدتها أسرعت للحال إليها فأخذت هذه توبخها على تركها شغله أو مكوثها الطويل في غرفة نجيب، غير أن هذا التوبيخ فضلاً عن أنه لم يرق في عينيها كان داعياً إلى نفورها من والدتها وحاملاً على إذكاء نار الرغبة في قلبها فعملت بما يمليه عليها ما يتراءى لها أو ما يتراءى لقلبها لا ما يتراءى لحكمتها وعقلها، والمرأة في هذه الحال مقودة لا تقود نفسها وإذا قادت نفسها فقاعدتها الذهبية مذهب ميكافلي القائل (الغاية تبرر الوسيلة).

قضت معاد ذلك النهار تلعب بها العواطف والأميال تارة تخرج إلى الحديقة شاكية طيورها ما في قلبها من هوى وجوى وأخرى تنقلب إلى

والدتها متظاهرة بمساعدتها بمهامها وهي في كلا الحالتين تغالب جيوش الملل وتنتظر بفارغ الصبر انهزام النهار أمام جيوش الليل.

أتى المساء وعاد موسى إلى البيت وجلس الجميع يتناولون طعام العشاء فإذا بهم يسمعون على باب البيت طرقاً دخل على اثره موزع البرق وقد سلم والد سعاد وصلاً وقع هذا عليه وأعاده للموزع مستلماً منه برقية قرأ فيها ما يأتي:

موسى التاجر - حلب

أين أخوكم نجيب؟ هل هو عندكم؟ منذ شهرين لم أره ولم أسمع عنه شيئاً. قلقي شديد.

كامل

فظهرت الحيرة والكآبة على وجوه كل منهم على اثر وقوفهم على ما ورد في البرقية وأخذ الواحد منهم ينظر إلى الآخر كأنه يستطلع ما في ضميره من أمر نجيب وما حل به وأين مقره وهل هو حي أم ميت وفيما هم كذلك وقد خيم عليهم سكوت ممزوج بحزن صامت دخل الضابط نجيب البيت ومذ شاهدهم على تلك الحال رابه أمرهم فسألهم الخبر فاطلعوه عليه وبعد أن قرأ البرقية هدأ روعهم ونصح موسى أن يذهب هو بنفسه للقدس حيث يهتم في البحث عن أخيه ويتولى أمر المحافظة على متجره ريثما يعرف مقره فوافق الجميع على ذلك وعوّل موسى على أن يبرق في اليوم التالي إلى كامل خطيب ابنته مطلعاً إياه على عزمه، ثم انقلب كل واحد إلى مخدعه.

وكانت سعاد أثناء ذلك ساكتة تسمع كلام نجيب وقلبها يضرب ضربات متوالية ولدها فيها دخول نجيب وكأن تأثير البرقية فيها قد أمحت أثاره أمام هذا التأثير الأخير الطارئ على قلبها، ومن رآها على تلك الحال وقتئذ لا يشك في أن البرقية هي سبب هذا التأثير مع أن الحقيقة هي خلاف ذلك.

أما نجيب فمذ دخل غرفته خلع عنه الرداء العسكري وافتكر بالاضطجاع غير أن تلك البرقية ومجرد ورودها من القدس حولا النوم عن عينيه وصرفاه إلى الافتكار بوديعته فيها ألا وهي «أديل» فاشعل لفافة وجعل يخطر في الغرفة ذهاباً وإياباً حتى شعر أن الفرقة قد ضاقت به وأن هواءها لم يكن كافياً لتبريد زفراته الحارة فلجأ إلى حديقة البيت بعد أن ارتدي معطفه وجلس يتأمل على مقعد فيها قائم تحت شجرة ليمون عطرت الهواء رائحتها الذكية، وفيا هو كذلك إذا به يسمع وقع اقدام تقترب منه فالتفت خلفه فإذا بسعاد تختلس الخطى نحوه وتبتسم له قائلة:

- أرى سيدي ساهراً فما الحامل له على ذلك؟

- مرض في النفس

- وما نوع هذا المرض؟

- شكٌ في الأمل

- أو تظن أن من كان في ماضيه حزيناً يكون في مستقبله كذلك إنك لفيلسوف عظيم. تأمل دائماً ولا تفسح لليأس مكاناً بين جنبيك أن التي

هـي سـبب هـذا الشـك قـادرة عـلى إزالتـه.

- وكيـف ذلك؟ ومن هي؟

- ذلـك بـأن تقـدر تلـك التـي لا تـبرج مـن فكرهـا أبـداً والتـي لا شـعرت بحزنـك أسرعـت إليـك تواسـيك وتسـليك،ـ أو عرفـت مـن هـي؟

قالـت ذلـك وهـي تتفـرس في وجهـه بعينـين ناعسـتين تسـيلان رقـة وسـحراً، آخـذة يـده بـين يديهـا وضاغطـة عليهـا.

وكانـت السـماء إذ ذاك مرضعـة بنجـوم اشـتد لمعانهـا كـما هـو شـأنها في ليـالي الحـر وهـي الليـالي التـي تحبـب المغازلـة والحديـث للصبايـا والفتيـان.

وكان هـذا الموقـف يبعـد نحيبـاً شـيئاً فشـيئاً عـن القـدس حيـث فكـره وقلبـه، وكان كلـما حـاول صرف فكـره إلى أديـل تقـف حـركات سـعاد سـداً بينـه وبينهـا فيجـد تعزيـة لمـا هـو أمامـه عـما هـو بعيـد عنـه وليـس بعـض الرجـال في مثـل هـذه الحـال بأكـثر مـن بعـض النسـاء مقاومـة للميـل والضعـف الجنـسي فـإن نجيبـاً لم يلبـث وقتئـذ أن تنهـد تنهيـدة حـارة دلـت سـعاد عـلى أنهـا تمكنـت مـن بلوغهـا بعـض اربهـا، فضغطـت عـلى يـده ثانيـة خفـق قلباهـما لتلامـس كفيهـما وظهـرت عـلى وجـه كليهـما لوعـة الحـب وألم الحـزن فلـم يلبـث نجيـب أن ضمهـا إليـه عـلى غـير هـدى منـه شـاعراً تلـك العاطفـة اللذيـذة التـي يجدهـا الغريـب النـائي عـن أهلـه إذا لاقـي في مطـارح غربتـه شـخصاً يـأوي إليـه ويحنـو عليـه وأخـذ بيدهـا ملصقـاً إياهـا بكبـده. ثـم انتبـه أنفسـه ورفـع رأسـية متفرسـاً في وجههـا فـإذا دمعـة لامعـة تترجـج في مقلتيهـا فقـال:

- وعلام تبكين؟

- فقالت سعاد متنهدة:

- أبكي لأني امرأة ضعيفة أشعر بالغيرة التي تشعر بها كل امرأة غلبت على أمرها وحرم عليها الحب.

- أنتن النساء ضعيفات قادرات في وقت واحد تعرفن كيف تأخذن الحيطة لأنفسكن بهذه الدموع.

- إذا بكت المرأة يا سيدي فبكاؤها من أعماق فؤادها.

- إذن لا بد من عامل قلبي حملك على إرسال الدموع؟

- نعم

- وما هو؟

- الحب يا سيدي.

- لعلّ ذلك حبك لخطيبك؟

- كلا

- ولمن إذن؟

- لك

- وهل حبك هذا شريف خلص؟

- نعم يا سيدي.

- أو يدعي اخلاصاً أو شرفاً يا سيدتي أن تغازل فتاة مخطوبة نأى عنها

خطيبها رجلاً آخر سيما إذا كان لهذا الرجل أديل تملأ فراغ قلبه.

- إن خطبتي لم تكن شرعية لأن والدي أرغماني علية.

- وهل يجوز لكل امرأة أرغمت على الاقتران بمن لا تحب أن تتخذ كل يوم لها حبيبا. إن هذا رأي تراه لنفسها المرأة البغي.

- قل عني ما شئت ولا تنس ما قاله الشاعر: فهي شيطان إذا أفسدتها.

- وما تعنين بذلك؟

- أعني إني كنت قد صرحت لخطيبي إن السماء لم توح علي محبته وإني لن أحبه فاصر على حبي والحب لا يدعى حباً إلا إذا كان متبادلاً صرحت له بذلك قبل أن تتلامس أجسامنا على فراش الزواج ولئن أدعى بغياً في نظر قساة القلوب مثلك خير من أكون خائنة رجلها تظهر له حبها في العلانية وفي الخفاء تطلب عشاقاً غيره.

- وما كان جوابه لك؟

- إصراره على حبي.

- إنه لغرٌ أبله وثقيل أحمق، وجانٍ متعمد!

- نعم إنه لكذلك.

- وما هو موقفك الآن.

- موقف المرأة المسكينة الضعيفة التي تشعر بالميل إلى كل رجل قوي بجانبها.

- إذن تفتحين قلبك لكل زائر؟

- كلا!

- والحقيقة أنك لا تحبيه.

- كلا!

- إذن ما معنى كلامك هذا؟

معناه أني كنت على جمال تولت عفة النفس حراسته، وكنت حيث كان غرامي طفلاً وعفاني فتياً أغالب كيد كل هوى حتى ما كان ما كان من أمر ارغامي على الزواج فأخذت أطوف على موارد رائدها الفؤاد وكلما رآني شاب ممن يزورون بيت أبي يرثى لحالي ويأسف على سوء مصيري ويميل إلى محادثتي، فمنهم من كان يرضعني أفاويق الآمال ويرشفني رضاب الأماني شأن الفترة التي لم تتمكن منها الأخلاق الصالحة في هذا اليوم، ومنهم من كان يحسبني خائنة خطيبها ناقضة عهده فينظر إليّ نظرة المرأة الساقطة فيحمله غرور الصبا على مكاشفتي بحبه لي، لجثة تلمس ولحمة تلثم، فأصبحت والعفة نتسلل من جسمي قطرة قطرة على مورد كدر من أولئك الرجال تعاف وروده المرأة القوية وتختلف إليه الضعيفة علها تجد فيه ضالتها. غير إني وجدتك لست أحد أولئك الرجال فملت وشعرت بتعزية لضعفي في قربك فظننتُ أني أميل اليوم لكل فتى بعد أن خبرت الفتيات وعجمت عودهم.

- نعم لست من أولئك لأن أديل تلك التي أحبها قلبي منذ البدء في التي تملأ قلبي الآن وتشغلني عن كل حب آخر.

- إذن ألا تحبني؟

- أحبك محبة الأخ لأخته.

- وما معنى ضمك إياي إلى صدرك ضماً ولّد في قلبي ذلك الخفقان التي تشعر به الصبية بين يدي حبيبها؟

- قد يكون ذلك من باب الحنو والتعزية.

- ألا تحبني إذن؟

قالت ذلك وعيناها الشهلاوان الفاتنتان قد مدتا خيوط الغنج والدلال إلى قلب نجيب ويدها الناعمة تلاعب يده ناقلة إلى أحشائه تلك اللذة التي تضعف بإزانها إرادة الرجل مهما كان قوياً سيما إذا كان في وقت بؤسه وعندما يجد نفسه في حاجة إلى مواساة هذا العضر الضعيف اللطيف.

وإن سعاد لتشعر بهذه الخفقات في فؤاده فتستطرد كلامها قائلة: تعال، يا نجيب، تعال وضع رأسك على هذا الصدر الرحب. نحن معاشر النساء أطيب قلباً وأشدا حساساً منكم أنتم معاشر الرجال، تعال، تعال واقترب من تلك التي ة تأوي آلامك وتضمد جراحك، إنني أراك تتألم، قل ما بك ولا تخفيني أمرك. إنني مسلمة نفسي بين يديك فافعل ما تشاء ومر بما تشاء في فإنه يعزّ علي أن أراك كئيباً حزيناً.

وما انتهت من كلامها هذا حتى شعرت بذراع يطوق خصرها ويحتضنها ضاما إياها إلى صدره بكل ما في الرجل من القوة ثم ألقت رأسها على كتف نجيب فادنى هذا يدها من فمه يحاول أن يقبلها في جبينها فقالت سعاد وهي ترتجف:

- إن القبلة لا تؤخذ أخذاً بل تمنح منحة يا نجيب!

- عفوا يا سيدتي، فإني ما تناولت هذه القبلة من جبينك إلا وأنا اعتقد أني أقبل أديل. يا له من عذر أقبح من ذنب!. ولكن.. يا امرأة! إنك أضعف من أن تمدي يدلك إلى هذا الرباط المقدس الذي يربطني باديل وتقطعينه.

قال نجيب ذاك وجلس يتأمل ناظراً إلى نفسه نظرة عتب..

وكان القمر وقتئذ قد هتك ستر الظلام فارسل أشعته الزرقاء على الحديقة وأشجارها وكشف النقاب عن وجه المتعانقين، فاستغربت سعاد هذا التبديل الفجائي وتبادل كلاها النظر فإذا الواحد يجد في وجه الآخر تلك الصفرة التي تشاهد في وجه القمر... وفيما هما صامتان إذا بهما يسمعان ضرباً شديداً على باب البيت الخارجي فطار لبهما وانتفضا وحارا في أمرهما ماذا يفعلان إذا أفاق الوالدان ولم يجد ابنتها في مضجعها، غير أن أديل جمعت إليها أطرافها، واندفعت كالنمر الجريح ظافرة بغرفتها، أما نجيب فعمد إلى الباب وهو يكتم اضطراب قلبه، وسأل قائلاً: من الطارق؟ فأجابه خادمه الجندي من الخارج ففتح الباب فحياه الجندي التحية العسكرية وسلمه رسالة قرأ فيها بالتركية بعد فض ختمها ما معناه:

حـضرة الضابط نجيب أفندي

بأمـر مـن مركـز القيـادة العامـة وارد لنـا في منتصـف هـذه الليلـة يجـب أن نغـادر حلـب في السـاعة الثالثـة بعـد نصـف الليـل فتأهـب لذلـك.

أمير الاي هاشم

ونهـض مـوسى وامراتـه عـلى اثـر طـرق البـاب فاطلعهـما نجيـب عـلى جليـة الأمـر فحزنـا لذلـك لانهـما كانـا مستأنسـين بـه ولم تكـد تمـضي نصـف سـاعة حتـى رأيـت نجيبـاً عـلى أهبـة السـفر. وخرجـت سـعاد مـن غرفتهـا متجاهلـة هـذه الحركـة فاركـة عينيهـا لتخفـي أمرهـا عـن والديهـا، وعندمـا ألمـت بالأمـر ارتجفـت سـاقاها واضطـرب قلبهـا وخفـق صوتهـا وترجـرج الدمـع في مقلتيهـا فخشـيت مـن أن يفضـح أمرهـا وانقلبـت إلى غرفتهـا ريثـما سـكن روعهـا. ومـا هـي إلا لحظـة حنـي رأيـت الجنـدي المكلـف بخدمـة نجيـب واقفـاً وبيـده جـوادان فربطهـما إلى حديـد النافـذة، ثـم دخـل وأخـذ أشـياء الضابـط وحاجـه العسـكرية، وخرجـت سـعاد مـن غرفتها وهـي تحـاول كتـمان تأثرهـا فبـصرت بنجيـب يـودع والديهـا وينقدهـما أجـرة إقامتـه عندهـما ويشـكرهما عـلى اعتنائهـما بـه، فتعلقـت أنفاسـها، وتزايـدت أوصالهـا ومـدت يدهـا إليـه كالمسـتغيث المتلهـف فدنـا منهـا نجيـب ونظـر إليهـا نظـرة الـوداع الأخـيرة وألقـى عـلى ذلـك البيـت نظـرة عامـة ثـم تراجعـت سـعاد قليـلاً وهـي تنظـر إليـه بعـين ملؤهـا الحـب والجـزع والتفتـت إليـه فـإذا بـه قـد اختفـى.

الفصل الثامن

المشنوق

•••

في صباح يوم ١٣ كانون أول سنة ١٩١٥ والبرد شديد قارص خرجت أديل وسلوى من بيتها الواقع في المستعمرة الألمانية في المحل المعروف بالبقعة لتزورا قبر نجيب وتضعا عليه اكليلاً من الزهور وما كادتا تصلان باب الخليل حتى رأتا الناس زرافات ووحداناً قد تألبوا في ذلك المحل فنظرتا إلى حيث كانت عيونهما شاخصة فإذا بهما تريان شاباً في نحو الخامسة والعشرين من العمر معلقاً بخشبة اعترضت بين عموديين من الخشب ضربا إلى الأرض وقد اندلع لسانه وأكمد لونه وبرزت عيناه، عليه ثوب ابيض اتصل بقدمه وفوق صدره لوحة كتب عليها بأحرف كبيرة: «خليل سالم حكم عليه بالإعدام شنقاً لأنه فرّ من الجندية» وعلى اللوح فقط دم حمراء قذفها فم ذلك الشاب عندما شدّ الحبل إلى عنقه .....بنفسه الأخير. منظر محزن مخيف ما كادت تقع عليه عينا أديل وسلوى حتى اصفر لونهما وضعفت رجلاهما وخشيت سلوى من يغشى على أديل فأخذتها من يدها وانقلبت بها على اعقابها من حيث أتت.

وعاد إلى أديل أثناء السير بعض رشادها فقالت لها:

- ما أحرانا بأن نعود ونضع هذا الاكليل على رأس هذا المشنوق يا سلوي فلا شك أنه غريب وعلنا بذلك ننوب عن أمه الحزينة وزوجته التعيسة.

- لقد سمعت واحداً يقول لرفيقه أنه ليس بغريب وإنه من إحدى القرى المجاورة للقدس. وهبي أنه غريب فهل تظنين أنك تستطيعين وضع هذا الاكليل على رأسه؟

- ومن يمنعني.

- الحكومة.

- ولماذا؟

- لأنها تعتقد أن من يسلك مسلكه ويموت هذه الميتة الشنعاء لا يستحق أن يضفر رأسه بإكليل بل من شأنها أن تحمل الناس على احتقاره ورذله والنظر إليه بعين التشفي والقسوة لا بعين الحنو والشفقة واذا وجد من خالف ذلك أتى أمراً إداً وكان خائناً لوطنه وحكومته.

- وهل الحكومات كلها تنحو هذا النحو.

- نعم.

- ولكن لعل لهذا الشاب عذراً على فراره يا سلوى أن يكون وحيد عائلة كبيرة وليس لها سواه رباً يعولها ويقوم بحاجتها.

- لقد قضى أمر أنور باشا الأخير بتجنيد الوحيد فليس ثمة من عذر لمن يفر من الجندية.

- وهل يستحق الموت من يود أن ينشل عائلته من مخالب الموت ولأنه لم يرد أن ينزل الموت بإخوانه البشر. هبي أن عمل هذا الشاب فاسد فانهم يحاربون الفساد بفساد أعظم فكيف به إذا كان عمله

هـذا شريفاً إنـه فـر مـن الجنديـة لـكي لا يقتـل ولا يُقتـل فكيـف يجازونـه بالقتـل والشـنق؟

- إن مــن لم يبــادر إلى الدفــاع عــن الوطــن يعــد خائنــاً في نظــر جميــع الحكومـات يـا أديـل وجـزاء الخائـن المـوت وهـذا قانـون مرعـي الاجـراء عنـد جميـع الـدول.

- إن الــدول والحكومــات يــا ســلوى قــد أضعــن ميزاتهــن العقليــة. إن هـؤلاء قـد امتهنـوا تلـك الـروح روح المحبـة والسـلام التـي نفخهـا اللـه فيهـم عندمـا خلـق الإنسـان فأصبحـوا كالجهـاد لا يتألمـون لتـألم الإنسـان. إن الطمـع والأنانيـة قـد حجـرا قلـب هـذه الانسـانية. إن الأحـمال التـي كانـت تـرزح البشريـة تحتهـا منـذ سـنين وأجيـال في نفـس الأحـمال التـي لا تـزال تـئن منهـا والقـروح التـي كانـت بالأمـس تـأكل لحمهـا هـي نفـس القـروح التـي تنخـر اليـوم عظمهـا جمـود مسـتولٍ عـلى عواطـف الطبقـة العليـا مـن بنـي الإنسـان، قـاضٍ عـلى شـعورها، حائـل دون رقـي روحهـا | ولولاهـا لمـا رأينـا الشـقوة تبلـغ حدهـا مـن هـذا الوجـود المملـوء أوزاراً.

إن العاطفـة الأخويـة تتسـلل شـيئاً فشـيئاً مـن جسـم هـذه الانسـانية. أو لسـنا ننتظـر تحقيـق مـا ورد في التـوراة عـلى لسـان أشـعياء النبـي أن الذئـب والحمـل يرعيـان معـاً، فـإن كانـت هـذه البشـارة سـتتحقق حرفيـاً أيليـق أن تكـون الأخـوة الحيوانيـة قبـل أن تكـون الأخـوة الإنسـانية. الوطـن! لا خـير في وطـن يجنـي عـلى أبنائـه ويؤخـذ بالقتـل وسـفك الـدم. أن الفضيلـة لا تعـد فضيلـة إذا كان الدافـع لممارسـتها القـوة والارهـاب ومحبـة الوطـن المشـترى بالقتـل والذبـح والشـنق رذيلـة يجـب عـلى أبنـاء المدنيـة والنـور

اجتنابها وإلا فبماذا يمتازون عن أبناء الهمجية والظلمة؟

- لقد تماديت في شجب هذه الانسانية وكدت أصدع بأقوالك ولكن هي محبة الوطن يا أديل تقضي بذاك ومحبة الوطن من الايمان.

- بئس الوطنية يا سلوى في حرب لا صوت للحق في صليل سيوفها ولا أثر للعدالة في دوي مدافعها.

- وهل خفي عليك يا عزيزتي أننا نحارب القوة والظلم وندافع عن الضعيف والحق أم هل غاب عنك أن إرادة الله في فوق كل شيء.

- الحرب التي تبتدئ بأطماع الملوك والأمراء وتنتهي بهلاك الشعب لحرب غاشمة ظالمة لا أثر لإرادة الله فيها.

- لا يتم شيء في هذا العالم إلا بقضاء وقدر وقد قدر للقرن العشرين أن يتعمد بالنار والدم وقدر لنا أن نكون حلفاء الألمان في هذه الحرب وهل يغني حذر عن قدر؟

هنا توقفت السيدتان قليلاً عندما رأتا أنها قد وصلنا البيت دون أن يشعرا بذلك، فأخذت أديل سلوى عن يدها قائلة: تعالي يا سلوى نجلس لننهي حديثنا، إن الله يا عزيزتي خلق الإنسان حراً وسلمه قيادة أمره وارادته، ولولا ذلك لألغي العقاب والثواب ولبرر كل من قُدِّرَ له الجنة مهما عمل ظلماً وأتى منكراً ولأصبحت جهنم مأوى الذين قدر لهم العذاب مهما عملوا صالحاً وتجنبوا منكراً وما القضاء والقدر عندكم أنتم معشر المسلمين إلا بمثابة مشيئة الله وارادته عندنا نحن المسيحيين وعليه فالشر في هذا العالم ناتج عن إرادة الإنسان والخير

عـن إرادة اللـه. ومـا أحسـن مـا رواه الإمـام الغـزالي في هـذا المعنـي حيـث قـال: سـمّ مـا كان قضـاءً حكـماً ومـا كان قـدراً جـزاءً.

إذن علينـا أن نجـل اللـه عـز وجـل ونرفـع إرادتـه المقدسـة عـن أوحـال هـذه الجـرب السـاقطة التـي أضرم نيرانهـا طمـع الملـوك وإرادة الأمـراء الشريـرة.

كانـت أديـل تتكلـم بذلاقـة دلـت عـلى غـزارة اطـلاع ووفـرة مـادة، فأجابـت سـلوى وقـد تـورّدت وجنتاهـا:

- ولكـن عجبـاً أيتهـا السـيدة ألم تنـص كتـب التنزيـل عـلى أن اللـه جعـل الخليقـة سـلاحاً للانتقـام؟ ألم يسـلط اللـه في القديـم شـعباً عـلى شـعب آخـر حـاد عـن وصايـاه؟ ألم يقـسِّ قلـب فرعـون؟ ألم؟ ألم؟ وكـم مـن شـواهد في التـوراة تناقـض حجـما وتنـافي مدعـاك.

- أسـلم لـك بـكل ذلـك يـا عزيـزتي ولكـن اسـمعي مـا قالـه اللـه تعـالى في خطبتـه عـلى الجبـل: سـمعتم أنـه قيـل للقدمـاء، عـين بعـين وسـن بسـن وأمـا أنـا فأقـول لكـم لا تقاومـوا الـشر بالـشر بـل مـن لطمـك عـلى خـدك الأيمـن فحـول لـه الآخـر ومـن أراد أن يخاصمـك ويأخـذ ثوبـك فاتـرك لـه الـرداء أيضـاً ومـن سـخرك ميـلاً واحـدة فاذهـب معـه اثنـين. سـمعتم أنـه قيـل للقدمـاء تحـب قريبـك وتبغـض عـدوك أمـا أنـا فأقـول حبـوا اعداءكـم باركـوا لاعنيكـم. أحسـنوا إلى مبغضيكـم وادعـوا إلى اللـه أن ينغفـر للذيـن يسـيئون إليكـم ويطردونكـم لأنكـم إن أحببتـم الذيـن يحبـوني فـأي أجـر لكـم أليـس العشـارون أيضـاً يفعلـون، كذلـك؟.. أمـا انتـم فأصنعـوا بالنـاس مـا تريـدون أن يصنـع النـاس بكـم الـخ.. فهـذه العظـة التـي هـي عندنـا

الديانة المسيحية كلها لو عملت بها تلك الممالك المسيحية لما غرق العالم في بحر من النار والدم. لو صفحت النمسا عن الجرم الذي بادرتها به الصرب، واذعنت لمساعي المتداخلين بالصلح بادئ ذي بدء لما حل بالعالم هذا البلاء العظيم هذه هي إرادة الملوك الشريرة فإن الدول في جميع أقطار الأرض وخصوصاً الكبرى منهن إنما هي بمثابة أغوال مسلحة بالأسلحة الجهنمية وكل واحدة ترصد رفيقتها وتنظر إليها شزراً بعين وتغازلها بعين أخرى.

إن ألمانيا قد تيقنت أنها إذا هاجمت الدول قهرتهن وجمعتهن كلهن في بطنها تحت رايتها كما كان يقصد نابوليون الأول. فالطمع والرياء هما أساس هذه الحرب. الطمع والرياء من القوي ومن الضعيف.

ومن المعلوم أن الطمع والرياء يجران وراءهما كثيراً من الرزائل والنقائص، فكيف ندخل إرادة الله في هذا المضمار ونخرجها منه ظافرة سليمة المبدأ وكيف ينال هذا الظفر إذا لم تحارب الإرادة الالهية باقي الممالك بسلاحهن أي بالطمع والرياء واكذب والمخادعة. إن السيد المسيح أرسل إلى هذا العالم لهدم الفساد ورسم صورة الكمال الأدبي فخلع نير القوة والوثنية ووضع مكانه نير الكمال الروحي وهذا النير كسر بعد ذلك نير قيصر الروماني لأن قيصر نفسه عاد إليه ووضعه على عنقه أي دخل في الديانة المسيحية، وهذا الانتصار تمّ بوسائط سلمية لم تسفك فيه نقطة دم غير دماء التلامذة الذين كانوا يدعون الناس إلى مذهبهم. فكأن مبادئ المسيح السلمية صنعت وحدها بلا حرب ولا قتال أضعاف ما كانت تريد الأمة اليهودية صنعه بالسلاح ألف مرة،

فـإن الأمـة اليهوديـة لم تكـن تطلـب غـير طـرد الرومانيـين مـن فلسـطين، وأمـا مبـادئ المسـيح السـلمية فإنهـا جعلـت الرومانيـين وعاصمتهـم روميـة سـيدة العـالم - خدمـة (كـما هـو اليـوم أيضـاً) لاورشـليم عاصمـة المسـيحية.

وهنـا أخـذت سـلوى للبحـث أهميـة عظمـي فتحفـزت للجـواب ثـم قالـت برصانـة: تكلمـت كثـيراً أيتهـا السـيدة وأوضحـت عـن أفـكارك بـكل حريـة. قـولي لي مـا الـذي أضعـف الـروم والأحبـاش وهـل دعاهـا إلى الهـرم والاضمحـلال بإضعافهـا بعضهـا بعضـاً بالحـروب إلا استسـلامها للشـهوات والأهـواء؟ مـا حمـل اللـه عـلى ابادتهـن كـما بـادت روميـة الوثنيـة غـير خروجهـن عـن المبـادئ القويمـة؟ ألم تنتـدب العنايـة الإلهيـة لهـذه المهمـة العظيمـة شـارع الاسـلام العظيـم، ذلـك الأمـي اليتيـم الـذي ضعضـع عـروش الأكاسرة والقيـاصرة بسـيف وكلمـة وهـي: «اللـه أكـبر مـن كل لات وعـزى وكل نبـي ورسـول وكليـم» ألم يقـاص اللـه العـالم بالطوفـان يـوم اسـتشرى واسـتفحل أذاه؟ ألم يصـب النـار والكبريـت عـلى سـدوم وعمـورة؟ ألم يقـل إني لا أعـود لرسـل طوفانـاً بـل أجعـل الخليقـة سـلاح الانتقـام...

فدهشـت أديـل لأجوبـة سـلوى وأعجبـت بمناقشـتها وكانـت تظـن أنهـا كمعظـم أخواتهـا المسـلمات الـلائي قلـما ذوهـن بتعليمهـن، ثـم قالـت بهـدوء وسـكينة:

- نعـم، نعـم ولكـن اللـه عندمـا أحـرق سـدوم وعمـورة سـأل عـما إذا كان يوجـد صالحـاً واحـداً. فهـلا عـدم اليـوم العـالم صالحـاً واحـداً حتـى يصـح أن يقـال أن إرادة اللـه هـي التـي آلـت بالعـالم اليـوم إلى الدمـار. إن سـيئات القـرن العشريـن تعـد حسـنات بـإزاء رذائـل وفظائـع المـاضي معـاذ اللـه أن

ترضى إرادته يترميل عشرين مليوناً من النساء البريئات وتيتيم عشرين مليوناً من الأطفال الأبرياء!.

ولم تكد أديل تنتهي من لفظ كلمة الأبرياء حتى سمعت على الباب طوقاً فيها خفيفاً فتوقفت عن استمرار حديثها ثم نهضت سلوى ودخلت غرفة أخرى وفتح الباب فإذا بشاب في الثامنة والعشرين من عمره عليه بزة جندي انحنى لأديل قائلاً:

- حضرت السيدة أديل يا سيدتي؟

- نعم ، ومن حضرتك؟

- كامل سليم من حلب، كلفت بتسليمك مبلغاً من المال.

ثم أخرج من جيبه ظرفاً مختوماً وقال:

- وهذا كتاب من زوجك.

وسمعت أديل كلمة زوجك فسخرت في سرها بالشاب لعلمها أن زوجها في عالم الأموات ثم اخذت الكتاب بيد مرتجفة وفضت ختمه ومذ وقع بصرها على الامضاء أمتقع لونها واصطكت رجلاها وما زالت تكذب نفسها وتقرأ حتى وقعت الرسالة من بين يديها وأصابها شيء من الذهول، غير أنها عادت وتجلدت، فلاحظ كامل هذا التغير الفجائي وسأل أديل عن سبب ذلك فطلبت إليه الجلوس وهي تحاول رد ما شتته هذا النبأ الفجائي من صوابها ثم قالت:

- لا تسل عن السبب.. هل حقاً ما أرى وأسمع؟

- ما معنى ذلك يا سيدتي؟

- أنجيـب على قيد الحياة؟

- ومـن هو نجيب؟

- زوجي!

- وهل تشـكين في خطه؟

- كلا. أن اليـد يا ـ عيسر..

- والموت؟

- المـوت؟ ولكـن زوجـي قـد تـوفي منـذ عـام فهـل بعـث مـن القـبر وعـاد إلى الحيـاة بعـد المـوت؟

- سـمع كامـل لفظـة نجيـب فمـر بهـا بـادئ بـدء دون اكـتراث مستسـلماً للهواجـس ثـم قـال:

- منـذ عام توفي زوجك؟

- نعم

- واسم زوجك نجيب؟

- نعم

- وأين دفن؟

- في صهيون

- وكيف كان موته

- قتله أحـد رجال الجندرمة رمياً بالرصاص.

وكان صـوت أديـل وهـي تتكلـم منخفضـاً حلـواً تقطعـه نهـدات تجعـل سـامعها يصغـي لنبضـات قلبـه وتنتقـل بـه إلى عـالم الأحـلام. أمـا وجههـا فـكان موشـحاً بغشـاء معنـوي نسـجته عليـه كـف اليـأس عندمـا تهاجمهـا جيـوش الأمـل فـزاده حسـناً وغرابـة وهيبـة.

وأطـرق كامـل إلى الأرض وأخذ يفتكر، فقالت له أديل:

- وما يدعوك إلى الافتكار يا سـيدي؟

- ظـن مـن أن القتيل يومئذ هو اخ عمي

- وما اسم عمك؟

- نجيب التاجر

- وكيف أدركت ذلك؟

- مـن كلامـك يـا سـيدتي. لأنـك تقولـين أن زوجـك قتـل منـذ عـام وشـقيق عمـي نجيـب مـضى عليـه عـام دون أن يوقـف لـه عـلى أر واتفـاق الاسـمين ووجـود زوجـك عـلى قيـد الحيـاة لدليـل ناصـع عـلى أن القتيـل هـو ليـس زوجـك. آه! يـا إلهـي مـاذا يلـم بسـعاد عندمـا تعلـم بالأمـر؟

- وما هي علاقة سـعاد به؟

- هي ابنـة أخيه وهي مخطوبتي أيضاً

- وأين هي؟

- في حلب

- ربما سـافر شـقيق عمك إلى حلب ولم يعلمك بسفره

- ولقد أبرقت إلى أخيه وسألته عن ذلك فأجابني أنه منذ عام أيضاً لم يستلم منه كتاباً.

وكانت سلوى أثناء ذلك تسمع الحديث في الغرفة الأخرى وهي بين مصدقة ومكذبة وجود نجيب زوج أديل على قيد الحياة. ولما كانت من اللائي سمت نفوسهن عن التقاليد وتمكنت منهن التربية القوية. ووقفن على المعلوم الحديثة لم تعد ترى الانثقاب والتحجب إلا عادة من العادات القديمة السابقة الاسلام والباقية بعده فضلاً عن أنهما ليسا من المشروعات الاسلامية لا للتدين ولا الأدب. عرفته سلوى ذلك ومزقت ذلك الستار وتقدمت نحو الزائر محيية إياه وقائلة لاديل:

- أهنئك يا عزيزتي بسلامة نجيب زوجك. وأنت أيها الزائر الكريم لا تتسرع في ظنك كما تسرعنا نحن.

ثم انتحت مكاناً للجلوس وكامل يتأمل كمن عاثت بعقله جنة إذ وجد نفسه بين امرأتين لا تزيد الواحدة حسناً عن الأخرى فنسي شقيق عمه نجيب ووقف وقفة الثعلب عندما نظر عنقود العنب وقد سال لعابه.

أما أديل فقامت إذ ذاك على رجليها وأخذت تخطر في الغرفة ذهاباً وإياباً وتردد على لسانها لفظة نجيب ولم تعِ على نفسها إلا لما رأت كاملاً يسلمها الخمسين ذهباً عاداً إياها عليها.

وحمل اعجاب كامل بجمال السيدتين على إطالة المكوث في ذلك في المكان وهم بمطارحتهما أحاديث الغرام فلم يجسر لأن الجمال إذا اتصل جمال الخلق هيبة تستولي بطريقة سحرية على الحيوانات المفترسة

فضلاً عن شرار بني الإنسان سيما المنهكين وهم الجبناء، ونهض للحال على رجليه مصافحاً السيدتين ومنهزماً من أمامهما كما ينهزم الليل أمام جيش الصباح..

القسم الثَّاني

...

الفصل التاسع
(الشرائع والمرأة)

•••

لـو رأيتهـا وقـد جمّلهـا مبدعهـا عجيـا ضـن بمثلـه عـلى شـفعاء البـشر المتجسـمين مـن ملائكـة وقديسـين وبقامـة متقنـة الصنعـة تديـر حركتهـا القانونيـة روح متناهيـة الخفّـة، لقلـت: مـا هـذا بـشر، إنّ هـذا إلا مـلاك كريـم!

أو رأيتهـا جالسـة حيـال أمهـا، وقـد احنـت ظهرهـا عـلى طفلـة بـين ذراعيهـا، تلعـب شـفتاها الملائكيتـان بحلمـة ضرع اتصـل بصـدر يضـنّ بـه أن يتحـول إلى تـراب، وفي عينيهـا السـماويتين يجـول مـاءٌ لا يختلـف عـن مـاء الدعـة واللطـف الجائـل في عينـي طفلتهـا، لقلـت: هـذه واحـدة مـن الالاهـات التـي تحـت أقدامهـن الخلـد والجنـة!..

لـو رأيـت خيـوط الأمـل الضائـع، نسـجتها عـلى وجـه تلـك المعـصر كـف بـؤس انفضـح أمـره بالرغـم مـن بـذل المحاولـة في اخفائـه، وقـد زينهـا خالقهـا بثغـر لـو اسـتعنت بلغـة الملائكـة عـلى وصـف مـا تـراه مـن تلـك الخيـوط ومـا يحدثـه افـترار ذلـك الثغـر في نفـس ناظرهـا الاحسـاسي مـن ثـورة وانقـلاب يحملانـه عـلى انـكار ذاتـه وتقديمهـا عـلى مذبـح التفـاني في سـبيل انقـاذ الانسـانية المتألمـة مـن الانسـانية الظالمـة لعجـزت لغـة الملائكـة عـن ايفـاء الوصـف حقـه وتمنيـت أن تصـاب بصرعـة تنـزل عليـك النبـوة، فيتحلـب مـن فمـك زبـد وحـي يقـوم بمـا عجـزت لغـة الملائكـة عـن ايفائـه!

لـو عرفـت أن هـذه الكاعـب التـي أحدثـك عنهـا أيهـا القـارئ -امـرأة عاطـل- لفقـدت رشـدك، وصككـت وجهـك، وقلـت معـي لـو كانـت هـذه الكاعـب عاطـلاً فمـن هـي المحصنـة يـا تـرى؟:

عجيـب مـن صـورة في أقـرب الصـور البشريـة إلى اللـه ومثالـه أن تمثـل العطـل وأعجـب مـن ذلـك، جسـم لـولا القليـل لرأيتـه يتقلـص رويـداً رويـداً ليسـمح للـروح الخفيفـة التـي تجـول فيـه، التجـرد عنـه والتحليـق مـع الأرواح في عـالم مـا وراء الاجسـام، أن يمثـل عليـه ابطـال الأميـال أدوار الـذات ومشـاهد الأهـواء!.

نعـم الصبيـة غاويـة وشرائـع الأرض القاسـية هـي التـي سـاعدتها عـلى الغوايـة.

فجـع الدهـر هـذه الصبيـة بمـوت عائلهـا شـنقاً لأنـه أبى أن يشـترك مـع المتقاتلـين في سـاحات معـارك التمـدن الحديـث مخلفـاً لهـا خيطـاً مـن خيـوط الأمـل، ألا وهـو مـالٌ يسـير كان قـد جمعـه ليكـون حـرزاً لهـا بعـد موتـه.

فجعها به وهو غن غض الشـباب وهي غضة طرية الاهاب.

عـام واحـد مـرّ فقـط عـلى زواجهـما تمتعـا بخلالـه بحـلاوة شـهر العسـل وبأمـاني وآمـال مـن شـان ربيـع الشـباب أن يوحـي بهـا عـلى كل عريـس وعـروس قريبـي العهـد بالـزواج، وبعـده افترقـا، فـلا أمـاني ولا آمـال.

فجعهـا بـه فاصـلاً روحـه عـن روحـين امتزجـت بهـما امتـزاج المـاء بالـراح، روحـين عزيزتـين: روج عروسـه وروح طفلتـه.

فجعها به فأوت الشقية الأرملة إلى أمها وليس لها ولأمها من معين، فأصبحن ثلاثاً تحت سقف امتزج أوكسجين هوائه بغاز البؤس وانزوين في بيت الأحزان جافلات نافرات من شر ما سوف تولده لهن الليالي الحبالى من الشقاء والفاقة.

وحاطت الأمَّان: الأم وابنتها، تلك الطفلة وفي قلبها من المضض والارتماض ما لا تطيقه القلوب البشرية.. وما فتئا كذلك حتى نفذت فضلة النقود التي كانت بين يديهما، فساءت حالهما وأصبحتا في حاجة إلى ما يتبلغان به من خشارة قذرة، وثمالة كدرة..

وأنها لكذلك فإذا الأم الفتية تقول في مساء أحد الأيام لأمها العجوز: ترين يا أماه أننا اصبحنا لا نملك ما نسد به رمقنا ونكسي عرينا فما العمل؟

- الصبر يا بنية فما بعد الضيق إلا الفرج.

- إذا صبرت أنا فإن هذه الطفلة لا تصبر يا أماه. ألا يوجد في هذا البلد المشؤوم مخزن أو معمل أحصل فيه بعرق جبيني ما يصد عنا غارات الجوع والابتذال؟

ووضعت الأم رأسها المشتعل بالهموم بين راحتيها ثم قالت بعد أن قذفت من صدرها النهدات الحارات:

- قبل أن يتبادر إلى ذهنك هذا الخاطر يا بنتي كنت قد اخرجته إلى حيز العمل فطفت جميع المخازن والمصانع دون أن أعلمك، وكلما دخلت مخزناً كنت أخرج منه متعثرة بأذيال الخيبة.

- ولماذا؟

- لأن تجار هذا البلد المقدس يدعون أنهم غير معتادين على استخدام الفتيات في مخازنهم.

- إذن فلنحترف الخدمة يا أماه!.

- حثت عن ربة بيت تكون في حاجة إلى مرضع أو وصيفة فلم أجد ولربما وجدنا بعد أيام، إذن فلنصبر ولربما يا بنتي.

- آه يا أماه أوهل نحن وحدنا طريدا البؤس والشقاء في هذا العالم؟

- كلا يا بنيتي بل أن العالم مملوء من أمثالنا.

- وكيف يعشن هؤلاء الشقيات؟

- إن بعضهن إذا وجدن في الغرب يسابقن الرجال في تحصيل الرزق بسواعد مفتولة وعرق يتصبب من الجباه سواء بالشغل في المعامل والمخازن التجارية أو بالاستخدام في دوائر الحكومة.. وبعضهن حيث تكون هذه الوسائط مفقودة ولا ملاجئ مخصوصة لأمثال الصبايا الأرامل اللائي عدمن كل نصير في العالم وبتن وأطفالهن تحت رحمة الصروف والعبر، يضطررن إلى دخول الأديرة والانفصال كرهاً عن مهج أفئدتهن ومنهن من أبين أن يدفن حياتهن بين أربعة جدران الدير ويحول الحنو الوالدي دون تركهن فلذات أكبادهن فيبحثنا عن رزق يأتيهن بعمل اليد، ولما لا يجدنه يسوقهن نكد الطالع إلى أبواب أترفع عن ذكرها.

- أتعنين أبواب الابتذال؟ وهل كل المبتذلات اضطرتهن الفاقة إلى هذا المورد الكدر؟

- لا فإن منهن من كن يرفان في الحلل الباهرة ويتأنقن في المآكل الفاخرة، فسكن البيوت العمومية طمعاً في ثروة يجمعنها من وراء الاذلال، ومنهن من اضطرتهن الفاقة إلى اذلال أنفسهن.

- وهل من مسوغ لعمل هؤلاء في قوانين البشر.

- نعم شرائع الأرض وقوانين الحكومات المتمدنة تجيز لهن ذلك الانذال..

- وكيف يصبر أهل الفتاة عن تبذل ابنتهم؟

- إنهم لا يقدرون على منعها عن ذلك ولا أن ينالوها بأذى لأن روح هذه القوانين تمنح كل فرد ذكر وأنثى حرية التصرف في نفسه كيف شاء وإذا تجاسر أحدهم وهدد ابنته أو اخته أو زوجته وصدها عن عزمها يقع تحت طائلة القصاص الصارم.

- سحقاً للحكومات المتمدنة وتباً لشرائع الأرض وبست الحرية حرية البشر يا أماه!. ولكن دعينا الآن من هذا البحث وهبي نطلب وجوه الرزق ونلتمس أسباب القوت، فإني لا أقدر أن اتصور قائد الاضطرار يزيل السكينة عن أفئدة العذارى، ويسلّ العفة من أحضان الأرامل الصبايا. إني أرى الضائقة تنزل بنا والعوز يحضرنا، والفضلة التي نتعلل بها تنفذ. هلمي نبحث عما يصون وجوهنا ونستعين به على تربية هذه البنية قبل أن يهن العزم ويغور الحزم.. إني أشعر بنازل سعال

يهاجم صدري الآن فماذا عسى يلم بطفلتي عندما ينزل بي الجوع ويخترم جسمي السقم، ويجف لبن ثديّ؟

وما أتت على هذا الكلام حتى انحنت على طفلتها بين ذراعين صيغتا من الشفقة والحنان وجعلت تقبلها وتضمها إليها.

واستيقظت الطفلة لحرارة تلك القبل، وهمت بالانزلاق من حجر أمها، فخانها أولاً سنها، وثانياً ضعف يستولي على الإرادة التي لا يتم في سبيلها شيء عند الأطفال سببه لبن الهم والغم الذي تغذي به الأم الشقية وليدها الطفل.

وإن الأم لتنظر بأم عينيها هذه التأثيرات المخزنة في طفلتها فتعدم صرها وتخونها القوى ويحتويها اليأس ويبلغ منها القنوط ثم تُلقي طفلتها بين يدي أمها العجوز وتخرج تضرب في الأرض رجاء أن تصيب لطفلتها رزقاً.

وغدت ساعية إلى التماس وجوه الرزق فإذا بها كلما حاولت الفرار من وجه البؤس تجد نفسها أمام وجه العار، يواجه في هذا العمر كل حساء مضرة معدمة.

وما فتئت كذلك حتى وقعت بين عاملين قويين، ما كانت لتغالبهما إلا وترتد عنهما ارتداد الموجة عندما تصدم جلمود الصخر في عرض البحر. وقعت بين عاملين ظالمين وهما: قائد الاضطرار واتباع الضلال من شيبة هذا العصر المدلة بوفرة مالها فغلبها ذاك على قابها، وأوردها هؤلاء سراب الآمال وحببوها بالمال وأوهموها أنهم بعض منقذي الانسانية التاعسة، الواقفين أنفسهم لإقالة عثرات البائسات، فإذا بها على مورد

إثـم ينتـزع منهـا المنـة ويسـللها مـن جسـمها قطـرة قطـرة.

رأيتهـا وليـس وراء مـا بهـا مـن الحـزن غايـة، كاسـفة البـال سـيئة الحـال تمـشي عـلى اسـتحياء لتـأوي إلى طفلـة وعجـوز يتغذيـان بخبـز عجـن بـدم العـار ومـاء مـزج بـدم الفضيحـة!

رأيتهـا وقـد ذهـب الفقـر بزينتهـا تـدور في الفضـاء بعينـين بعـد أن كان يجـول فيهـما الوقـار أصبحـا تنـوراً تندلـع منـه لهـب الحقـد والحـزن كأنهـا سـاخطة عـلى قوانـين الـورى حانقـة عـلى الهيئـة الاجتماعيـة..

رأيتهـا وقـد تحـول هيـف قدهـا إلى هـزال، والتقـى عـلى خديهـا دمـع الحـزن بدمـع الـدلال، تنظـر إلى السـماء بعـين السـخط كأنهـا تشـكو أولئـك الجالسـين عـلى كـراسي القضـاء يسـنون الشرائـع، ويضعـون القوانين وينسـون امـرأة ناصبهـا شـقاء الحظـوظ العـداء، فعمـل عـلى كيدهـا، ونبذتهـا هيئـة العـالم فهـوت إلى الحضيـض تهـادى بهـا الخطـوب وتقـاذف بهـا الآلام!.

رأيتهـا مريضـة داؤهـا في نفسـها لا في جسـمها وقـد عـز عليها الشـقاء، تفسـح للكفـر مجـالاً للدبيـب في قلبهـا فتـود الحكـم عـلى تلـك القـوة السـماوية وأخـرى ترتـد متعبـة واهنـة القـوى فتنفـث سـم غيظهـا في شرائـع الأرض الجائـرة غـير تاركـة كلمـة تـدل عـلى لعنـة إلا ورمـت بهـا شرائـع الأرض أو لفظـة تـدل عـلى بـذاءة إلا وتعتـت بهـا مدنيـة القـرن العشريـن.

رأيتهـا وقـد غـارت اجفانهـا، وجمـدت، واكتحلـت بتخيـلات التوجـع والألم بعـد أن كانـت مبتسـمة فرحـة.

رأيتها وقد يبسـت شـفتاها وأصبحتا كوردتين جففتهما ريح الحريف.

رأيتها وقد انحنى عنقها الذي كان قائماً كعمود العاج، تحت أعباء ما في رأسها من الانقلابات الموجعة الثقيلة.

رأيت هذه الملامح تزيد وجهها ملاحة وجمالاً وتنم عن أسرار ذاتها المعنوية، وكثيراً ما تكلل الأحزان وجوه الحزانى.

هذه أيها القارئ امرأة اضطرتها الفاقة إلى البغاء وما أكثر ضحايا الفاقة من الفتيات والنساء.

في كل بلد بل في كل مدينة وقرية إناث يتسكعن في الضلالات ويتبسطن الإثم ويتمرغن في حمأة الغرور..

منهن الكافرة بنعمتها، الخائنة بعملها. ومنهن الطافرة من حضن والديها. ومنهن من أثرت عليها أخلاق الصواحب الرديئة وتلاوة الكتب الفاسدة فنزعن نقاب الحياة وعفن زينة النساء. ومنهن الشقيات المغتصبات ممن وقفت الأهواء بينهم وبين اعلامهم من تجار الأعراض والأرواح، ومنهن البائسة الناعمة التي نزل بها اعسر والفقر إلى منزلة خرجت بها عن أفق العفة والصيانة، وترامت بها رامي الملاك ولو لم يكن الفحش من أمرها.

يسن البشر الشرائع، وتضع الحكومات القوانين لنشر العدل، ومنع الظلم، ورفع نير الرق والاستعباد عن رقاب العباد. ثم تساعد الشرائع القوانين الخائنات بعولتهن، والطافرات من أحضان والديهن، والنازعات عنهن براقع الحياة، والمخدوعات المغلوبات على أمرهن، وتشجعهن على حرفة المنكر بقولها لهن: أنتن حرات، مطلقات، بئست الحرفة المنكودة والحرية الموهومة!.

يهتم أطباء الاجتماع بوضع حد لشقوة الانسانية وفساد المجتمع وأمراض المعمورة الفتاكة، وأطباء الاجتماع مرتاحون إلى رؤية سيوف الدنس تسيل على ظباتها نفوس العذارى المخدوعات، والبيوت العمومية مزدحمة بالمنازعات حريتهن كرهاً، من الكواعب الأتراب المبيعات بالدرهم والدينار.

تتألف الجمعيات الخيرية وتفتح الملاجئ الاحسانية ويفتخر المجتمع الانساني بما وصل إليه هذا الجيل من المدنية، والبؤس بعرض المرأة على هذا المجتمع أمة، فيتساوم في عرضها المغبون، وتبتاع نفسها الحرة بكسرة من الخبز.

تقام المستشفيات، وتؤسس المدارس، وتتلى العظات في الجوامع والكنائس، وفي كل يوم بل كل ساعة نرى الأزواج يخونون عهود الزوجات، والزوجات يخن عهود الأزواج ولأسباب منها معقولة ومنها غير مقبولة يتجلبب كلا الفريقين من الخارج بجلابيب العفة والقيام على العهد وتحت الثياب هياكل خوت من روح الوفاء والشعور، ونفوس لا تخضع لسلطان العقل ولا تجيب نداء الضمير.

أجسام مريضة ونفوس مريضة ونسل مريض فماذا تجدي المستشفيات والمدارس والعظات إذا كنت ما تبنيه غيرك يهدم.

تتقن المجالس واللجان في وضع اللوائح والنظامات لتقيم سدوداً منيعة لا يتجاوزها المعتدي القادر والقوي الغادر، وكل يوم نرى الشبان يسرحون ويمرحون ويملؤون الأرض، فمن تياهٍ بكثرة رجالة ومن معجب بهندامه، ومن منظم لوفرة ماله، يلبس الطوق المرتفع ويتطوق رقبته

منديـل يرسـله إلى الصـدر، وبعقلـه اليسـير وسـفهه الكثـير يجلـس عـلى قارعـة الطريـق متعمـداً اغاظـة العقيـلات مسـتهتراً في التعريـض بالفتيـات حتـى إذا غلبـت احداهـن عـلى أمرهـا وأمالهـا إليـه، سـقطت بـين ذراعيـه الآثمتـين وافترشـها مـا شـاء وعايشـها العمـر أو تركهـا تحـرق الارم أسـفاً عـلى حالهـا وذهـب في طريقـه مخلفـاً لهـا ولأهلهـا الحـسرات محاربـاً الناقمـين عليـه وشـاجبي عملـه بقوانـين الحكومـات وشرائـع البـشر الجائـر.

يـا ويل المرأة من الرجل!

تسـلخ هيئـة العـالم العاطلـة عـن هيئتهـا، وتفـرز البشريـة المومـس مـن جامعتهـا والباغـي المتهتـك يسـير الخيـلاء مـدلاً بنفسـه مفتخـراً بعملـه، تتغـاضى هيئـة العـالم عـن فعلتـه ولا تفـرزه البشريـة المتعسـفة مـن جامعتهـا..

تـزوج فتياتنـا صغـيرات غـير مـدركات حتـى إذا انفتحـت أعينهـن لنـور الحيـاة ولم تجـد الواحـدة منهـن في نفـس زوجهـا، الرجـل الـذي تحبـه نفسـها، والـروح التـي تعانقهـا روحهـا، والقلـب الـذي تسـكنه قلبهـا فتحـاول أن تتعلـم صحبتـه وتعمـل جهدهـا لتصـير سـعيدة بنسـها، كـما يسـعد هـو بهـا، وعندمـا تعييهـا الحبـل وتجـد لنفسـها أمـام رجـل انتخبتـه لهـا الأرض لا السـماء، أمـام رجـل يمـلأ جوفهـا مـن خبـزه وهـو يمـلأ فراغـه مـن حبـات قلبهـا، أمـام رجـل زوجتهـا الشريعـة مـن جسـده الجميـل ونفسـه الخبيثـة يقاسـمها الماديـات ولا يقاسـمها الروحيـات، ترفـع عـلى قلعـة قلبهـا علـم الثـورة والانتقـاض وتـأبى أن تكـون بعلـة للضعـف والهـوان ثـم توصـد أبوابهـا في وجـه محبتـه، وتحـوم نفسـها عـلى غـير وده، وعندمـا تفعـل ذلـك

تغضب عليها هيئة العالم، وتفرزها البشرية من جامعتها المتعسفة وتسجلها الشرائع والقوانين في سجل العاطلات.

يبتاع الاغنياء الصبايا بدراهمهم رغم إرادتهن ليشركوهن حياتهم ويقاسمنهم أفراحهم وأموالهم، وهن كلما وطئن بساط عزهم، وتهادين في مطارف نعيمهم، وتقلبن على حواشي ملكهم، وجدنَ حاضرهن موثقاً بروج فتى مادي أحبهن، وبجسد شيخ لا يعرفنه ولا يفهمنه، فيحاولن أن يكن صابرات قويات في هذا الصراع المميت فيخفق سعيهن ويستيقظن تلك اليقظة المخيفة بعد ذلك النوم المزعج وتعصف من عواصف النفس، ونلقي بهن في بطن الرذائل كعمود الرخام يهوي به الزلزال في بطن الأرض وعندما يشاهد العالم ذلك يقول: هؤلاء زانيات ساقطات اخرجوهن من الجامعة البشرية.

ترهق الحكومات بالضرائب أجسام رعاياها، وتجند رجالها ليقتلوا في الحرب، وتشنق أبناءها الذين لم يلبوا منادي الجندية، وتؤسس ملكها على جثث شبانها، وتكنز الكنوز وتكتسح البلدان ريانة بدماء القتلى، وعندم تيتم الأطفال، وتؤيم النساء ويفجعن من يعولهن، وتفقد العذارى في ميادين الحرب من سوف يشاركوهن الحياة، عندما يلجئهن قائد الاضطرار إلى ركوب مركب المضطر تقف في وجوههن هيئة العالم وتصيح فيهن بصوت أروع من زمجرة الأسد، وأعمق من صراخ الهاوية: أنتن عاهرات ساقطات ثم تفرزهن البشرية من جامعتها الضالة...

ينزح الرجل الغادر عن امرأته الصبية، وتشط به مرامي النوى ولما تنقطع أخباره، وتعدم كل نصير، لا تملق وتجوع وتركن إلى الصبر

وتستجير وليس لها من مجير، لما تبيع الناس نفسها وتعرضها في سوق الشقاء تسجل البشرية فعلتها في سفر الزناء، وتسقطها من هيئتها الفاسدة!.

تزدحم القصور بالأعزاب الكذبة، والأديرة بالرهبان المموهين ونحشو أدمغتنا بتعاليم مناقضة بتعاليم الأفق الأعلى، ونصغي لأقوال جهلة بعيدين عن بساطة أمهم الطبيعة، ونعيش معيشة قبيحة بالتفنن، سطحية بالمدارك، بعيدة عن القلب بالمعارف، معيشة الذئاب في الكهوف، واللصوص في المكامن، وعندما ترتمي الفتاة على الحضيض كطائر رماه الصيادين الأشواك، والسهم في قلبه تقول: هذه أمة سافلة، يجب إخراجها من هيئة المجتمع الانساني!.

نستقبل الخلاعة في بيوتنا، ونحتفي بها حين تأتينا عن طريق الموضات، وتفسح لها مجالاً في حضن عائلاتنا، ونحجب فتياتنا عن ورود مناهل العلم، ونسمح لهن بمعاشرة الغير وهن جاهلات، ثم إذا زلّت التقدم بإحداهن، نقول: هذه زانية فاسقة يجب أن تستأصل جرثومة حياتها من أرض الحياة...

بين أيدينا أنباء طور سينا، وجبل الزيتون، والكمية العربية أتت إلينا عن يد ثلاثة مشترعين عظام وهم: موسى والمسيح ومحمد، يليهم نوابغ العلم والأخلاق، من ذوي النفوس الكبيرة، كلهم ينادون بملء فيهم ويقولون: المرأة مادحة السرير بيمناها هازّة العالم بيسراها- المرأة وعاء النسل وظرف الحمل، المرأة مأوى العفة، ومهد اللطف المرأة أساس العائلة بل أساس الأمة، المرأة زينة الإنسان ومشتتة

الأحـزان، المـرأة موحيـة العظائـم، ومجـددة العزائـم.. والمـرأة اليـوم بـين قاتـل متعمـد، وفـاد متصنـع، تسـتهوي بجمالهـا قلـوب الفاديـن المتصنعـين مسـتمدة اسـتهواها مـن الشرائـع والقوانـين وتطيـع القاتـل المتعمـد حـين يجاذبهـا السـلطانين: الذهـب والقـوة، حتـى يسـتميلها بالقـوة.. فمـن تيجـان تنقلهـا الصبابـة بـين أقـدام الغـواني، ومـن رؤوس ورع تعصـف بهـا عواصـف الراميـات، تجتثّهـا مـن منابتهـا وتقـذف بهـا مـن عـالٍ اشـم إلى منهـل كـدرٍ تعـاف وروده الطـير...

رُوَيـدَ الراضـين عـن فسـاد هـذا المجتمـع، الآمريـن بجعـل الإنسـان إنسـاناً حـراً مطلقـاً بعيـداً عـن كل قيـد، شـبيهاً بأمـة الطبيعـة مـا هكـذا تكـون الحريـة وليـس بـذا تأمـر الطبيعـة عليكـم بتمحيـص التاريـخ تجـدون مـن معيشـة اليونـان القدمـاء، ومعايشـتهم نسـاءهم، مـا أقـرب منكـم اليـوم إلى الطبيعـة والحريـة..

يعـرف الرجـل المـرأة اليـوم وربمـا تـزوج ليـس لقضـاء سـنة طبيعيـة مـن ورائهـا تكثـير النسـل السـليم القـوي كـما كان يفعـل اليونـان القدمـاء بـل لفضـاء لـذة وقتيـة. وتُعـرف المـرأة اليـوم وربمـا تزوجـت ليـس لتكـون أمـاً بـل لدفـع مغـرم وجـرّ مغنـم..

أقيمـوا العائـلات عـلى أسـس الديـن والعلـم والتهذيـب ولا تزوجـوا البنـات وهـن غـير مـدركات! ولا ترغمـوا المـدركات عـلى أخـذ مـن لا يسـتميل قلوبهـن بالمحبـة قبـل أن يُخضـع أجسـادهن بالدرهـم والديـنار. لا تزوجوهن مـن الكهـول وهـن كواعـب. دعـوا حـدّاً للطمـع والاسـتئثار الذيـن يجـران إلى الحـروب. وقالـوا مـن أمثـال العزبـان الكذبـة والرهبـان المموهـين

ثـم اقلبـوا هـذه الكـرة الارضيـة ظهـراً لبطـن، واسـتعيضوا عنهـا بقوانـين اشـتراكية وباشـتراكيين تشربـوا مبادئهـا السـامية ليقومـوا بالأمـر فيكـم وحينئـذ تصـيرون شـبيهين بأمكـم الطبيعـة، فـلا تعـود عيونكـم تـرى الفاقـة أو الـزواج الباكـر، القهـري، أو الدينـار والدرهـم وقتـل الـزوج والشـاب في الحـرب أو نزوحـه عـن الأهـل في طلـب الـرزق، وانقطـاع أخبـاره أو خـداع عـزب وتمويـه راهـب متصنـع أو شريعـة جائـرة وبشريـة متعسـفة، تضطـر أنثـى إلى مـا يسـمى اليـوم فسـقاً وبغـاء..

إن هـؤلاء المدعـوات مومسـات نسـاء لـو رحمتهـن الشرائـع وعطـف عليهـن قلـب البشريـة القـاسي الـذي يسـميه البعـض شـقاء الحظـوظ لهـززن الدنيـا. وغـيرن نظـام العـالم، بـل أن بينهـن مـن هـنّ أوفـر حشـمة وأكـثر بعـداً عـن الشـهوة مـن كثـيرات مـن المخـدرات اللـواتي تنحنـي الـرؤوس أمامهـن.

لـكل إنسـان حيـوان مثـل طباعـه، ويتطـور بأطـواره ٠٠ وفي الإنسـان اليـوم حيوانـات سـاكنة في هيـاكل بشريـة، حبـذا هـي لـو لم تكـن أحـط كثـيراً مـن الحيـوان...

أفبعـد هـذا نقـول أننـا أحـرار، وأننـا شـبيهون بأُمّنـا الطبيعـة أيهـا الراضـون عـن فسـاد هـذا المجتمـع؟.

ويـحٌ لهـذا المجتمـع مـا أكـثر مخازيـه. ينهـى عـن المنكـر ويدعـو إليـه ويأمـر بالفضائـل ويحيـد عنهـا!

في ذمـة المجتمـع أشـلاء شـائعة بـين حريـة فاسـدة ومدنيـة فاسـقة وفي مجـدد سـماء هـذا الجيـل حمائـم مروعـة بـين هيئـة ظالمـة وبشربـة ضالـة. وعـلى ميـاه الأوقيانوسـات، وصفحـات الأرض، وفـوق قمـم الجبـال ينعقـد

دخـان الحـسرات والاوجـاع مرتفعـاً مـن نفـوس المظلومـات..

أمـا لـو فُـوّض الأمـر لي لـكان لي مـن الانسـانية نجـدة تحطـم هـذه النظامـات وتلـك القوانـين، وتقيـم عـلى أنقـاض هـذه البشريـة المتعسـفة مجتمعـاً يحـدّر مـن صلبـه نسـلاً جديـداً يسـحق تماثيـل الأجـداد الضالـة ويقـذف بهـا في أعـماق اليـم.

لا أريـد أيهـا القـارئ في كل مـا تقـدم أن أجمـل القـول إجـمالاً، بـل أن بـين الأرامـل الصبايـا المثريـات والمعـوزات، والتـي هجرهـن أزواجهـن سـعياً وراء الـرزق، والمتزوجـات صغـيرات ورغـم إرادتهـن واللائي فقـدن أزواجهـن الشـبان في الحـرب بـل أكثرهـن إن لم أقـل كلهـن مـن هـن أمنـع مـن عقابـه الجـو، ولكـن أليسـت هـذه المناعـة إذا أردنـا أن نجـاري كـما يقولـون أمنـا الطبيعـة إحـدى نتائـج ظلـم الشرائـع وتسّـف البشريـة؟

أمـا وقـد مـضي الوقـت الـذي إذا تكلمـت بـه المـرأة لطمتهـا الهيئـة الاجتماعيـة عـلى فمهـا لتسـكتها إلى الأبـد! لأنهـا والرجـل شـقان لجسـم واحـد لهـا مـا لـه وعليهـا مـا عليـه..

ومـا الغـيرة الحقيقيـة لإصـلاح الوطـن إلا تلـك التـي تبـذل لإصـلاح شرائعـه وسياسـته.

أمـا وقـد آن الآن القـارئ الكريـم أن يعـرف مـن عـسى تكـون صبيـة هـذا الفصـل؟ إنهـا امـرأة ذات المشـنوق سـالم الـذي رأيتـه معلقـاً في الفصـل السـابق بـباب، الخليـل عـلى تلـك الخشـبة، ذال الـذي أرادت أديـل أن تضفـر رأسـه بالإكليـل الـذي كانـت مزمعـة أن تكلـل بـه قـبر زوجهـا في صهيـون: هـي مريـم (هكـذا اسـمها) التـي لم يكـن لهـا مـن معـين غـير زوجهـا

الشـقي وذاك الشـيخ العاجـز حموهـا الـذي رأيـت تمثيـل أحـد الجندرمـة بـه في بيـت جـالا كـما مـرّ بنـا في أحـد الفصـول السـابقة عندمـا خـرج في طلـب ابنـه سـالم للجنديـة.

شـنق زوجهـا وتـوفي حموهـا قهـواً عندمـا بلغـه شـنق فأصبحـت مريـم وحيـدة شريـدة ليـس عندهـا مـا ترتـزق بـه فـأوت مـع طفلهـا إلى أمهـا العجـوز التـي لم تكـن بأصلـح حالـة منهـا كـما مـرّ بنـا.

ولما بلغـت منهـا الضائقـة كـما رأيـت في حديثهـا مـع أمهـا العجـوز خرجـت تطلـب وجـوه الـرزق لطفلتهـا وتلتمـس أسـباب القـوت، فألجأهـا قائـد الاضطـرار إلى الانزعـاج عـن بيـت جـالا حيـث كانـت مقيمـة، والشـخوص إلى القـدس حيـث وقـف بهـا طوافهـا عـلى مـورد كـدر سـلَّل عفتهـا وأوقعهـا بـين ذراعـي جنـدي أثيـم افترسـها مـا شـاء وغادرهـا وهـي حامـل.

أو تعـرف أيهـا القارئ من هو ذلك الجندي الغادر؟

هـو كامـل خطيـب سـعاد الـذي رأيتـه منـذ حـين ينقـد أديـل الخمسـين ذهبـاً!

هـو ذلـك الجنـدي الـذي ألقـي إليـه أمـر الدفـاع عـن الوطـن والمحافظـة عـلى الأعـراض، ومـا أكـثر هـذا النـوع مـن الجنـود!

هـو ناكـث عهـد خطيبتـه، ومسـتنهز ضعـف صبيـة أفقدتهـا شرائـع الحـرب زوجهـا يعولهـا ويعـول طفلتهـا.

هـو ذلـك القـدم الـذي عندمـا شـبع مـن التلـذذ مـن جسـد مريـم تلـذذاً مـلأ مـا بـين شـدقيه مـرارة قطـع حبـل وداده بـه واختفـي عنهـا، فبقيـت المسـكينة وحدهـا بـلا أنيـس إلا ذلـك الجنـين الـذي كانـت تحملـه في أحشـائها وظلتهـا وأمهـا العجـوز. فانقطعـت عـن النـاس وأقبلـت عـلى نفسـها تلومهـا وهـي تبـكي أسـفاً عـلى حالهـا.

ثـم ماتـت أمهـا العجـوز ودفنـت كـما يدفـن الفقـراء وأصبحـت بعدهـا يائسـة القلـب، فاتـرة النشـاط، حائـرة في أمـر جنينهـا وليـس لهـا مـا تسـتعين بـه عـلى تغذيـة طفلتهـا اليتيمـة.

ومـا زالـت كذلـك حتـى شـعرت بنـزول العـوز بهـا وخشـيت شره المسـتطار فأصبحـت تـرى الدنيـا في عينيهـا أضيـق عـلى رحبهـا مـن سـم الخيـاط وصممـت التحـول عـن المدينـة «المقدسـة» والعـودة إلى بيـت جـالا، موقنـة أن الحيـاة حـرب وأنهـا وحدهـا في المهزوقـة فيهـا، واحتملـت طفلتهـا وليـس لهـا غـير مـا امسـكته في نفسـها مـن الحقـد عـلى تلـك المدينـة التـي كلـما ألتفتـت إليهـا ودعتهـا مـا قالـه لهـا السـيد المسـيح: يـا اورشـليم! يـا اورشـليم يـا قاتلـة الانبيـاء.. الـخ (مـت ص ٢٣: ٣٧).

احتلـت مريـم طفلتهـا بـين ذراعيهـا وجنينهـا في أحشـائها وسـارت عـلى اسـتحياء.

وحـل بصدرهـا سـعال زادت الرضاعـة في شـدته وكاد يقـضي عـلى البقيـة الباقيـة مـن خيـوط جـمال انتـشرت عـلى اديـم ذلـك الوجـه، وأوشـك أن

يذهـب الجـوع والحـزن مـا كان يتمـوج في عينيهـا مـن الحسـن والسـحر.

ومـا زالـت تسـير حتـى وقـف بهـا عطـش ابنتهـا عـلى بـاب نـزل بالمحـل المعـروف بالبقعـة قائـم في وسـط حديقـة يخـض أحـد المهاجريـن الألمـان فرقـه كـما يطـرق الفقـير البائـس أبـواب الأغنيـاء، ووقفـت معلقـة الخـوف أنفاسـها تنتظـر وصـول الصـوت إلى مسـامع أربابـه.

الفصل العاشر
(القتال في غليبولي)

•••

عندما انتصر القائد فون هندنبرغ الألماني على الروسيين في هجومهم على شرقي بروسيا وأحرزوا ذلك الظفر الكبير في بحيرات مازوبا أجابهم الحلفاء في أواخر شهر أيار سنة ١٩١٥ بإرسال اسطول مؤلف من البوارج الانكليزية والفرنساوية، بدأ بضرب الحصون والقلاع عند مدخل الدردنيل واصلاً قلاعه ناراً حامية، فتقدمت في الأيام الاولى في حركاتها تقدما مذكورة دون أن تكبد خسارة تذكر وقد دخلت تلاك البوارج مدخل المضايق وفي مقدمتها المدرعة الكبيرة الملكة اليصابات المنصوب عليها مدافع من عيار ١٥ قيراطاً فبرزت على البطاريات العثمانية في إصابة المرمى ودكت قلاع الدردنيل على الجانبين الآسيوي والأوروبي وألقت

الرعب في قلوب حياته من الأتراك والألمان ودمرت بطارياتهم. واكتسحت هذه البوارج اللغوم سامحة للمدرعات باختراق الدردنيل على بعد عشرة أميال بينما كانت البوارج الأخرى وقتئذ تضرب شبه جزيرة غليبولي من خلي ساروس.

وبعد ضرب متواصل استمر شهراً كاملاً حاولت البوارج الانكليزية في الأسبوع الثالث من شهر أذار خرق القناة معولة على نجاح مدافعها.

والسبب الأكبر الذي حمل الحلفاء على القيام بالهجوم على الدردنيل هو اعتقادهم أن إزالة تركيا من المعترك يزيل الخطر على مصر

والقوقـاز ويريـح جنودهـم منهـا وتتمكـن مـن نقلهـا إلى ميادين أوروبـا. وفضـلاً عـن هـذا فـإن فتـح الدردنيـل يعـود بالنفـع عـلى الخلفـاء أجمـع إذ تقـدر أن تمـد روسـيا حلفاؤهـا بالحبـوب، والمـآكل وتحصـل فهـي مقابـل ذلـك منهـم عـلى المدافـع والذخـيرة الحربيـة.

وكانـت نتيجـة ذلـك الهجـوم إن اغرقـت في ١٨ آذار البطاريـات الحاميـة الشـواطئ البارجتـين الانجليزيتـين أو شـان وإبـراز سـتيل والبارجـة الفرنسـوية نـوفي حيـث غـرق معهـا كثـير مـن الجنـود والضبـاط الانجليـز والفرنسـاويين، وكثـيرون منهـم تمكنـوا مـن النجـاة مـن الغـرق. وتعطلـت البارجـة الفرنسـوية «سـفرن» وعـدد مـن البـوارج الانكليزيـة.

مـع أن تركيـا لم تهاجـم مـن الدردنيـل في ذلـك الحـين فقـط بـل هوجمـت أيضـاً مـن الأسـاطيل الروسـية التـي كانـت تـضرب قـلاع البوسـفور

مـن البحـر الأسـود، ومـع هـذه النكبـة التـي حلـت بالحلفـاء في الدردنيـل تقـرر أن قـلاع الدردنيـل لا تخـرق وتؤيـد مـا كان يطنـب بـه المرشـال فـون غولتـز باشـا الألمـاني الـذي درب الجيـوش التركيـة في وصـف مناعتهـا.

غـير أن هـذا الفشـل لم يـثن عـزم الحلفـاء في الدردنيـل للوصـول إلى فـروق بـل عقبـه وصـول جيـش فرنسـاوي مـع عـدد مـن الجيـوش الانكليزيـة. حملـة مدافـع الأسـطول، للنـزول في شـبه جزيـرة غليبـولي تحـت قيـادة القائـد دامـاد الفرنسـاوي فاتـح شـادية الفرنسـاوية في سـنة ١٩١١.

ولم يبـزغ نهـار ٢٣ آذار سـنة ١٩١٥ حتـى رأيـت الأحـلاف قـد احتلـوا جيوشـهم وعددهـم شـبه جزيـرة غليبـولي.

في تلـك الجزيـرة وقـف الجيـش العثـماني أمـام الغـزاة الفاتحـين وقفـة الدردنيـل وقلاعـه في وجـه الأسـطول الـراسي في مياهـه.

هنالـك في غليبـولي وقفـت أرقـى الجيـوش العثمانيـة منـذ عهـد الفاتـح وسـليم وسـليمان تحـت قيـادة المارشـال ليـمان باشـا حامـي البوسـفور والقائـد العـام للجيـش الخامـس في خنادقهـم وخلـف متاريسـهم وجيـوش الحلفـاء ممتـدة عـلى مئـات مـن الأمتـار في ذلـك السـاحل الطويـل المريـض تحـت حمايـة أسـاطيلهم وطياراتهـم.

هنـاك سـقطت قـلاع جنـاق قلعـة عـلى شـدة مناعتهـا وجعلتهـا قنابـل العـدو وقذائفـه قاعـاً صفصفـاً، وعـلى بعـد سـاعة مـن هـذه المدينـة نصبـت مدافـع الألمـان الضخمـة مـن عيـار ٣٥ مشرفـة عـلى في المضيـق لا تـدع باخـرة أو طـرادة تقتحـم المضيـق دون أن تحـل بـه الأذى والخـراب.

غليبـولي تلـك البقعـة الجميلـة بمناظرهـا وغاباتهـا وبسـهولها وجبالهـا المسـتطيلة في شـكلها البالـغ عرضهـا ثلاثـين كيلومـترا وطولهـا ٨٥ تقاذفتهـا القنابـل والقذائـف في ربيـع تلـك السـنة وعالجتهـا المدمـرات والمتفجـرات وطيـارات السـماء ودوارع المـاء مـدة سـبعة أشـهر وهـي لا تـزال باعـة الوجـه للقـاء الأعـداء.

هنالـك في يـوم رق هـواؤة وطـاب سـماؤه مـن ربيـع تلـك السـنة، اليـوم السـابع مـن شـهر آذار أخـذ الجيشـان المدافـع والمهاجـم في سـاحات (اري بـروني) و(أنافورظـه) و(جنـاق قلمـه) و(سـد البحـر) للحـرب عدتهـم وانفتحـت أفـواه المدافـع واندلعـت النـيران مـن الـبر والبحـر والهـواء واوغلـت الـدواع تبخـتر في ذلـك المضيـق تصـلي قلاعـه نـاراً وفـولاذاً

والعثمانيون يجيبونهم من متاريسهم وخنادقهم صابين نيرانهم على ذلك الجيش المقتحم وتلك الرواسي الشامخات في البحر وقراد الفريقين في ذلك الهرج والمرج كأنهم أمام رقعة من الشطرنج ينتظرون النصر من خلال ذلك القتام حتى خيّل للرائي أن تلك البقعة كهرباء يشع منها الضياء أو ليل خفيت فيه البروق. ولم تكن إلا ساعتان من ذلك النهار حتى هاجت جيوش الفرنسيس والانكليز وتمشت إلى مفاصلهم حميا الاستماتة وهجموا هجوم الكواسر على متاريسن الأعداء وأخاديدهم غير حافلين برصاصهم الماطر، وابذعروا في السهول كالوعول وبسطوا أجنحتهم على الشهاب كالعقاب، وليس المدافع كالمهاجم، فقابلتهم الجيوش العثمانية ومن معها من الألمان بالمثل، وأصبح الضرب عن كثب فتار عثير الويل، فمن جحافل تتجندل وكتائب تميل كأنها الموج، وأسود تزأر، وجرحى تئن، وقتلى تلثم الرغام، وقنابل عند خروجها من فوهة المدفع كأنها العاصفة، حتى اتصل الفريقان إلى بعضها بالسلاح الأبيض، فأشرقت السيوف، وانتقلت من القراب إلى الرقاب واستطالت الرماح مقصرة الأعمار، فما كنت ترى إلا إعلاماً تخفق وحديداً بيرق، كأنما قبة السماء هوت بنورها وظلمائها على شبه جزيرة غليبولي. في تلك الساعة الرهيبة بينما كان النصر يلوح في جانب جيوش الحلفاء إذا بقائد إحدى الفرق العثمانية وقد كلل الشيب رأسه، يطوّح بجوادة في دماء المعركة مستلاً سيفه وصارخاً بالجنود صرخة أقلَّت الموت في تموجاتها فأحيت ما في قلوب جنوده من بقية صبر كاد ينفذ، وأخذ كأنه عقرب شائل يعمل مدينه في مقدمتهم حتى لمحة جندي أسترالي راقب عمله من بعد وأدرك أن يموت هذا المقتحم ستسفر المعركة

عـن نـصر مبـين للحلفـاء فهجـم هجـوم المستبسـل وكـر الكـرة إثـر الكـرة حتـى صـار عـلى مقربـة منـه فهـوى بسـيفه عـلى رقبتـه فتلقاهـا في الحـال ضابـط عثـماني بسـيفه، أوجدتـه الصدفـة إلى جانـب ذلـك القائـد وبـادر ذلـك الأسـترالي بطعنـة نجـلاء مـن رمـح بيـده الأخـرى أوقعتـه عـن جـواده يتخبـط بدمـه، فاستبسـل العثمانيـون لهـذا المشـهد وتقهقـر الأعـداء إلى أن صـدرت الأوامـر لهـم بالانسـحاب إلى الشـاطئ وأسـفرت تلـك المعركـة بفضـل ذلـك القائـد عـن فشـل الحلفـاء في غليبـولي وخروجهـم منهـا في تاسـع شـهر كانـون الثـاني سـنة ١٩١٦ عـن خسـارة لا تقـل عـن ١١٧٥٣٩ شـخص مـا بـين جنـدي وضابـط جريـح وقتيـل ومفقـود، هـذا عـدا عـن الخسـائر الماديـة التـي لحقتهـم والتـي اغتنمهـا الاعـداء منهـم. أمـا خسـارة العثمانيـين فكانـت فيهـا بأقـل تقديـر ثلاثـة أضعـاف خسـارة الحلفـاء.

الفصل الحادي عشر
(غرائب الصدف)

•••

انجلى الحلفاء بعد تلك المعركة عن شبه جزيرة غليبولي مخلفين قتلاهم وجرحاهم وذخائرهم وعاد الجيش العثماني إلى خنادقه ومتاريسه مستعيداً النفوذ الذي كان خسره بواسطة النكبات التي حلت به في القوقاز. أما القيادة العليا فقد كافأت بطلي هذه المعركة، القائد والضابط بان أنعمت عليهما بأوسمة الشرف وبترقيتهما إلى أعلى من رتبهما. غير أن القائد لم ينس صنع ذلك الضابط معه وتخليصه حياته من سيف ذال الأسترالي، فاستدعاه إليه حيث اضطره كبر سنه وما لاقاه من هول تلك المعركة إلى ملازمة خيمته والاقامة في سريره.

دخل الضابط الخيمة فإذا برجل مستلقٍ على سريره في الستين من عمره أبيض شعر الرأس تلوح على وجهه العظمة وكرم الأخلاق ومذ وقعت عينه على الضابط داخلاً حاول النهوض من عن سريره حالاً فخانه ضعفه فمد ذراعيه وضم ذات الضابط معانقاً إياه والدموع ترقرق من عيني كليهما.

وكان وقتئذ سكوت خمس دقائق منعت الدموع في خلالها المتعانقين من الكلام فكان السكوت خشوعاً ومهيباً.

ثم أصلح الضابط مجلس القائد وألقاه بهدوء على منضدة ليتكئ عليها وأخذ مقعداً إلى جانب السرير قائلاً بلهجة ملؤها الانعطاف والاحتشام، اضطجع يا سيدي ونم إذا شئت فأني ارى على وجهك

دلائـل السـهر وضعـف القـوى، ومـا السـهر إلا انتحـار بطـيء.

فقـال القائـد - كيـف اسـتطيع أن أنـام ويـد الأمـس قابضـة عـلى ضمـير اليـوم. الأمـس موكـب أشـباح تسـيل فـوق رأسي هامسـة في أذني أسـماء إخـواني في الانسـانية أسـماء رفاقـي الشـهداء، أسـماء الذيـن قتلـوا في معركـة أمـس والذيـن كوفئنـا عـلى قتلهـم بأوسـمة ورتـب.

الضابـط - نعـم لم احـرم أنـا أيضـاً مـن هـذه المكافـأة وعنـدي أن المومسـة التـي تبيـع النـاس عرضهـا وتضحـي بطهارتهـا لتنـال لقمـة تسـد بهـا جوعهـا لهـي كـما (قـال برناردشـو) في روايتـه الإنسـان والسـلاح أشرف مـن الجنـدي الـذي نـال شـهرته ببيـع أجسـام الألـوف بعـد أن نـشر الخـراب طـولاً وعرضـاً. إن هـذا المجـد الحـربي توحـش ورثنـاه عـن أجدادنـا أيـام كانـوا في دور الحيوانيـة إن وظيفـة مكـروب الطاعـون والكولـيرا ليسـت بـشر مـن وظيفـة ذلـك الضابـط والجنـدي الـذي تلمـع فـوق صدريهـما النياشـين لأن الوظيفتـين تبتـدآن بالقتـل وتنتهيـان بالقتـل إننـا في حاجـة إلى حـرب إصلاحيـة غـير هـذه.

القائـد - هـذه الحـرب الضروس يـا بني. هذه الحرب المشـتعلة حـرب التمدن الحديـث، حـرب القـرن العشريـن المخالفـة!! تقدمهـا مـن الحروب.. سـتنتهي ولا يكـون مـن نتائجهـا الظاهـرة فقـط سـوى سـقوط الـدول الأوتوقراطيـة، نعـم تنتهـي هـذه الحـرب ولا تنتهـي حـرب الأحـزاب احـزاب ذوي الـثروة والسـادة واحـزاب العـمال. سـتنتهي هـذه الحـرب المسـتعرة نيرانهـا باسـم الديموقراطيـة التـي لا ينتفـع منهـا سـوى أعدائهـا، الديموقراطيـة المذبوحـة عـلى هيـكل المطامـع الدوليـة. سـتنتهي هـذه الحـرب دون أن تحقـق

الانسانية الكمالات السياسية التي يسعى إلى تحقيقها بعض أبنائها. سيعقب هذه الحرب صلح يعزز فيه حق الغالب لا حقوق الأمم. صلح تقليدي مبني على مصالح الدول الأوروبية الكبرى وعلى مطامعها الاستعمارية والتجارية صلح سيعود على اثره العالم المتمدن إلى تقاليده السياسية، إلى تحاسد وتضاغن يستثمرها السياسيون والصحافيون والزعماء الطامعون بالثروة والسيادة. سيعقب والحرب صلع يقضي على أصحاب التيجان وأرباب الشرف الموروث المج تعزز به سيادة أولئك السياسيين الذين يرددون ألفاظ الحرية والمساواة والحكم الذاتي الخ. ويتشدقون بتلك الآيات الذهبية ثم يخدمون بأعمالهم وشرائعهم أمراء المال وأرباب المعامل والتجارة نعم سيتحقق السلم وينمو لكن في الطبقات الواطئة التي التهمت نيران الحرب رجالها. ستنتهي هذه الحرب يا بني وآمال الملايين من أبطال الحرب مدفونة معهم لأن الدول التي كانوا ينظرون إليها نظر العليل إلى الشمس لم تحقق ما كانوا يأملون لهذه الانسانية من الحرية والخلاص.

ثم توقف القائد عن الكلام والغصات تخنقه وأنطرح على سريره منهوك القوي. وحصل سكون كسكون المقابر، لم يدعه الضابط يطول فقال:

- سرّي عنك يا سيدي فسيأتي عام بعد هذه الحرب المشؤومة تنتشر فيه المبادئ المحررة للبشر، المقومة عدل الحكومات، المفضلة مبادئ الحقوق العمومية على المصالح الافرادية، الدائسة روح التعدي الاستئثاري، الصائنة حقوق الأفراد والبشر عموماً. سيأتي يوم تدعي

فيه القوة القهارة ليست لخدمة الرفعة السياسية والخصومات المتولدة عن مجرد الانانية بل لخدمة النظام والحق والسلام العموميين فتنتصر حقوق البشر التي هي عبارة عن انتخابهم خطة حياتهم وخطة حكمهم ويتم خلاص هذا العالم وتحقق آمال العمرانيين الاشتراكيين الذين سيقبضون على زمام الفكر السياسي الأوروبي وعلى مقاليد الحكومات ويتغلبون باحتجاجاتهم واعتراضاتهم على النعرة السياسية والمعالم التجارية. هنالك يقف الجنود عزلاً على أبواب حكوماتهم، نابذين الطاعة العمياء التي تمثلها الحملان بين يدي الجزار، رافضين حمل السلاح رامين بسلاحهم إلى الأرض، مقبلين الواحد الآخر، متحدين رجالاً ونساءً على عدو التمدن والانسانية فيقتلون الحرب في مهدها، في تلك الساعة تشرق شمس الاخاء والحرية على العالم وبعد ذلك التمرد والعصيان يستتب الحكم الديمقراطي الاشتراكي فتستولي الحكومات على الشركات التجارية العمومية كلها وتحدد ثروة الشركات التجارية والأفراد، ويعتمد في المشاريع العمومية والمعاهد العلمية والصحية والفنية، في ذلك اليوم يسقط الحكم الاستبدادي وتصر الحكم الذاتي الاختياري..

- سيتم ذلك ولكن ليس اليوم ولا بعد هذه الحرب حالاً، سيتم ذاك بعد سنين وحروب، ولكن دعنا نتجاوز هذا البحث إلى سواء فإني أراك تحسن العربية جيداً فهل أنت عربي؟

- نعم عربي سوري

- وسيدي؟

- كذلك

- إذن نحـن أمينان الواحد من الآخر

- لا ريب في ذاك يا سـيدي

- لقـد قيـل إذا تكلمـت ليـلاً فاخفـض وإذا تكلمـت نهـاراً فانفـض (التفـت حواليـك) فهـل لـك أن تنظـر خـارج الخيمـة حـذراً مـن وجـود مـن يسـمع حديثنـا؟ فخـرج نجيـب وجـول عينيـه خارجـاً فلـم يـر أحـداً وطـمأن القائـد بـأن لا أحـد هنـاك يخـشى منـه وجلـس.

فقـال القائد - هل أتتـك أنباء بلادنا يا منقذ حياتي؟

- كلا يا سيدي

- إن أحمـد جـمال باشـا قـد قبـض عـلي خـيرة أبنـاء الأمـة السـورية وقـادة أفكارهـا وسـافر إلى ديـوان الحـرب العـرفي في عاليـة حيـث يحكـم عليهـم بالشـنق والصلـب.

- ولماذا؟

- لأنهـم كانـوا يبثـون فكـرة القوميـة ونهضـة العـرب في نفـوس العـرب ويعملـون عـلى اسـتقلال البـلاد العربيـة وانفصالهـا عـن الدولـة التركيـة ولـو أدى ذلـك إلى احتـلال أو وصايـة عـادا عملهـم خيانـة للوطـن والحكومـة .

- يـا ويحهـم: وهـل يريـدون بشـنقهم أن يضحـوا عـلى عواطـف العـرب نحـو قوميتهـم وجنسـيتهم أم يظنـون أن السـيف والمدفـع يقتـل المبـادئ ويقـضي عـلى الآمـال؟

- إن مظالم الترك قبل الحرب وسوء ادارتهم حملت العرب على تشكيل الجمعيات السرية والثورات الاصلاحية وطلب اللامركزية للبلاد غير أن هذه المساعي ذهبت أدراج الرياح لأن الأتراك اعتادوا قتل الأفكار بالوعد والتسويف والمماطلة والتفريق بين العناصر إلى أن أُعلنت الحرب الكبرى فبعثوا بالسفاح الكبير أحمد جمال باشا قائد الفيلق الرابع إلى سوريا للتنكيل بالعرب والانتقام منهم والقضاء على أمالهم لأنهم عرفوا أننا صرنا نفهم معنى (العداوة التركية) التي أدركها شاعرنا من قديم الزمان فأنشدها في قوله:

تبدلت منهم بعد ما شاب مفرقي

عداوة تركي وبغض أبي سحل

- إن الحياة التي تنقضي بالذل والخنوع من غير عرض ولا شرف ولا مال ولا حرية ولا استقلال لا معنى لها وهذا ما حملني على أن أكون أحد أعضاء هاتيك الجمعيات سابقاً.

- اخفض صوتك وتذكر أننا الآن في غليبولي لا في سوريا.

كما إني لا أكتمك أمري فقد كنت عضوا شاملاً في إحدى هذه الجمعيات السرية مع السادة عبد الحميد بك الزهراوي وشفيق بك المؤيد ورزق الله سلوم وعبد الكريم الخليل والنشاشيبي والعريسي ورزق الله سلوم وبتروباولي وسليم عبد الهادي وحافظ بك السعيد ورشدي الشمعة وغيرهم، وإذا قدر لا سمح الله لسجناء عالية شرٌ فلا بد أن يقوم في الجزيرة العربية جبار نشوان بعزمه يطالب بدم هؤلاء فيسير ساحقاً بقدميه أجساد الطغاة الظالمين: اسمع ما أقوله

لـك إني عـربي وأحـب العـرب وأتـوق إلى مجـد العـرب، ولكنـي سـوري قبـل كل شيء أطلـب حريـة سـورية لسـوريا، أحـب بـلادي وأبنـاء بـلادي ولكنـي أخـشى عليهـم الاختلافـات والضغائـن. أخـشى عليهـم مـن التفـرق والضيـاع. أخـشى عليهـم المطامـع الاشـعبية والخطـط الاسـتعمارية. فهـل تنتهـي هـذه الحـرب يـا تـرى بخروجنـا مـن قفـص الاسـتعباد لنطـير فـوق بسـتان لا يترصـد فيـه الصيـادون؟ «

حبـذا لـو كانـت هـذه المعركـة التـي دارت بيننـا وبـين الحلفـاء أمـس معركـة عربيـة تركيـة تـدور الدائـرة فيهـا عـلى الأتـراك لنحـرر وطنـا مـن أيديهـم وأمتنـا مـن نيرهـم.

وكان الضابـط وقتئـد يعـي كلام القائـد وهـو غـارق في بحـر مـن التأمـل العميـق، غـير أن خـروج لفظـة «أديـل» مـن بـين شـفتيه دون انتبـاه منـه وارداف هـذه اللفظـة بتنهـد عميـق، أوقـف القائـد عـن اسـتطراد كلامـه، وحملـه عـلى سـؤاله عـن سـبب ذلـك التنهـد. لكـن الضابـط لم يفـه بـشيءٍ فقـال القائـد:

- أظنـك مفـارق عزيـزاً لا يـبرح فكـرك يـا صـاح، فقـرَّ عينـاً وطـب خاطـراً، فسـوف تعـود إليـه سـالماً ومـزوداً بنصـف ثـروتي لأن لـك فضـل عظيـم عـلى حيـاتي إذ أنقذتنـي مـن سـيف ذاك الغـادر، ولم يشـأ اللـه أن يقـضي عـلى شـيخوختي هـذه بعـذاب القتـل ولكـن لـك أن تقـول لي مـن أي بلـد أنـت يـا سـيدي؟

- من القدس يا سـيدي

فتوقف القائد قليلا عند سماع لفظة القدس ثم قال: لقد تحادثت معك طويلاً يا صاح وقد فاتني معرفة اسمك الكريم؟

- اسمي نجيب يا سيدي

أديل. القدس. نجيب. ألفاظ أخذ القائد يردها في سرّه كأنه واقف على أبواب سرٍّ عظيم، وأراد نجيب أن يحتفظ بهذا السر ويبعد القائد عن استطراد أسئلة كهذه فقال:

ومن عسى يكون ذلك النشوان بغرمه الذي عنيته في حديثك يا سيدي؟

فرفع القائد عينيه نحو نجيب كأنه قد أدرك قصده من تغيير الحديث فقال:

ذلك الجبار هو الشريف فيصل بن حسين الهاشمي شريف مكة المكرمة، الذي عندما رأى جمال باشا قد ألقى على من ذكرتهم لك من قادة الأفكار العربية توسط لديه بالصفح عنهم وإطلاق سبيلهم، وكان وقتئذٍ في سوريا، ولما قوبل توسله بالجبة والغلظة وقد خشي على نفسه هو أيضاً منه إن هو بقي في سوريا فانسل تحت جنح الظلام من الشام ليقص الأمر على والده وينتقم من حكومة ذلك الطاغية بإشعال نيران الثورة العربية، وعما قليل ستسع بذلك على رؤوس الأشهاد ولكن دعنا يا صاح من هذا الحديث لأني أخشى سوء عاقبته ولنستطرد حديثنا السابق، لقد قلت لي أن اسمك نجيب!

- نعم واسم سيدي

- سعيد

- إني أراك قد أطلت التفكر عندما لفظت اسم القدس فهل سيدي من هذا البلد المقدس؟

- لا وإنما زرته ضابطاً في الجيش الزاحف على قناة السويس في العام الماضي ولي فيها ذكرى لا تمحى وموقف ذي شأن لا أزال أحنّ إليه ما دمت حياً وها أنا أقص عليك ذلك الموقف: خرجت على ظهر جوادي في تاسع شهر آذار سنة ١٩١٥ من بيت جالا بلدة واقعة على بعد ساعة من القدس حيث كان جيشنا العائد بالفشل من قناة السويس قاصداً القدس وكان الجراد قد زار تلك البلاد بجيش كأنه غاية حجبت عين الشمس عن العيان وحط على الأرض حيث التقى بيضه في الأخاديد والثقوب من السهول والجبال ففرخ البيض جيشاً جديداً حدا بجوادي أن ينزلق في السير لكثرة الجراد المنسحق تحت حوافره، وما كدت أصل المحل المعروف بالبقعة حتى بصرت بامرأة ملقاة على الأرض فاقتربت منها فإذا هي لا تعي على شيء. واتفق أن مرت وقتئذ مركبة ليس فيها أحد فطلبت إلى السائق الوقوف فوقف. وبعد أن استعنت به على حمل المرأة ووضعتها في المركبة أشرت إليه بالسير على مهل. وسرت أنا على ظهر جوادي مبارياً المركبة إلى بيت في القدس قد خصصته لسكن أختي التي أبت إلا أن ترافقني في رحلتي العسكرية وكان نجيب وقتئذ يلتهم الحديث بجشع وكله اذان تسمع .

واستطرد القائد كلامه قائلاً - وبعد أن اخبرت اختي بواقعة

الحال أحضرت لها منبهاً ما كادت تستنشقه حتى شعرنا بدبيب الحياة في جسمها فتحركت حركة خفيفة أخرجت على إثرها بصوت

متقطـع لفظـة «نجيـب».

واصفـرّ إذ ذاك وجـه نجيـب وجلـس مبهوتـاً كأن بعقلـه جنـة. أمـا القائـد فتجاهـل موقـف نجيـب الغريـب وكان جـل قصـده التثبـت مـن حقيقـة أمـره. ثـم اسـتطرد حديثـه بلطـف وعطـف:

لقـد أثَّـر في منظـر تلـك الصبيـة يـا منقـذ حيـاتي وهـي ملقـاة يومئـذٍ عـلى قارعـة الطريـق، فضننـت بجمالهـا وصباهـا مـن أن يقعـا بـين يـدي شـاب خلـت منـه روح العفـة والأنفـة فعملـت مـا قصصتـه عليـك وأتيـت بهـذه الصبيـة كابنـة لي إلى أختـي الآنفـة الذكـر لتعتنـي بهـا.

أما نجيب فكان يسـمع دون أن ينبس ببنت شـفة.

وأن القائـد ليتابـع كلامـه قائـلاً - دبـت الحيـاة كـما أخبرتـك بجسـم ذاك المـلاك المتجسـم وعزمـت عـلى الخـروج لاستشـارة الطبيـب في الامـر فـإذا اختـي سـلوى تسـتوقفني قائلـة:

خـذ اقـرأ هـذه الرسـالة التـي وجدتهـا في جيـب هـذه الصبيـة. فأمعنـت نظـري فيهـا فـإذا هـي بإمضـاء «نجيـب»

«أديـل!» خـرج هـذا الاسـم مـن بـين شـفتي الضابـط بصـوت حزيـن متقطع، عقبـه تنهـد عميـق، فتـح القائـد عينيـه كأنـه يحلـم، ثـم ارتمـى الضابـط عـلى عنـق القائـد صـارخ: أنـت حامـي عـرضي!

واقشـعرّ جسـم ذلـك القائـد فـصرخ بـدوره أيضـاً ضامـاً الضابـط إلى صـدره: وأنـت منقـذ حيـاتي!

نجيب زوج أديل! وسعيد بك شقيق نهاد! لقاء غريب، وصدفة عجيبة!

وكان موقف خمس دقائق تخلّله سكوت الوحشة والمهابة وفيما هما كذلك إذا مجنديين يحمل كل منها بندقية أتصل برأسها حربة لامعة قد وقفا على باب الخيمة وخلفهما شرذمة من الجنود المسلحة.

وصحا القائد والضابط من غيبوبتها وما كادا يجمعان إليها ما تشتت من رشدها حتى هلع قلبهما وتشاءما بسوء المصير سيما عندما رأيا الخيمة قد أحاطتها الجنود إحاطة رجال الشرطة بجماعة الأشقياء!

الفصل الثاني عشر

(مريم)

•••

لنعد الآن إلى مريم وهي واقفة على باب ذلك المنزل تنظر وصول الصوت إلى مسامع أربابه علَّ أحدهم يأتيها بجرعة ماء تروي غليل طفلتها. ولما طال بها الانتظار ولم يكن لها من مجيب وابنتها بين ذراعيها كحرقة ذابلة عادت وضربت الباب بيدٍ مرتجفة، فأطلت من إحدى نوافذ الطابق الأعلى سيدة ما كادت تقع عيناها على مريم حتى رأت امرأة تضرع إليها بذلة قائلة:

- جرعة ماء يا سيدتي هذه الطفلة اليتيمة.

فهرولت المرأة للحال إلى باب الطابق السفلي الخارجي وبيدها الماء وما كادت تصله حتى قفزت الابنة من بين ذراعي أمها لشدة عطشها وبالرغم من ضعفها أقبلت على الإناء ماسكة إياه بكلتي يديها جارعة الماء جرعاً دلّ على أن بها حمى داخلية.

وأن هذه السيدة لتمعن نظرها في مريم فإذا بها تقرأ في عينيها البؤس والتعاسة، فسألتها قائلة:

- من أنت أيتها المرأة؟ والي أين تذهبين؟

فرفعت مريم عينيها الجميلتين المريضتين نجو السيدة كأنها تستغيث بها وقالت بصوت صحله السعال:

- لتعـذرني سـيدتي عـلى عـدم الجـواب لأني أضـن عـلى عواطـف سـيدة سـعيدة مثلـك أن يجرحهـا الوقـوف عـلى ترجمـة حـال امـرأة تعيسـة مثـلي.

فقالت السـيدة وقد زادها هذا الجواب عطفاً عليها:

- السـعادة الحقيقيـة أيتهـا المـرأة هـي في الشـعور بتعاسـة الغـير أدخـلي إذن هـذا البيـت علّنـا نكـون سـعداء بمقاسـمتك شـقائك ومشـاركك حزنـك. ولكـن مـا اسـمك يـا أختـي؟

فأجابـت مريم وقد سرّي عنهـا بعض ما هي عليه من الغم:

- اسـمي مريم يا سيدتي

فأخذتهـا المـرأة عـن يدهـا وصعـدت بهـا وبطفلتهـا إلى الطابـق العلـوي حيـث لاقتهـما سـيدة مـا عتمـت أن قالـت:

- لقـد أبطأت يـا أديل في العودة عليّ. فمن التي معك؟

فنظـرت إليهـا السـيدة وقالـت لنهيـئ سريـراً يـا سـلوى فـإن ليلتنـا بـاردة الهـواء ثـم خاطبـت مريـم، قائلـة: - والملـك

- ولعلـك تعبـة مقـرورة وجائعـة يـا سـيدتي؟ حللـت أهـلاً وأتيـت سـهلاً. ثـم جلسـت بهـا في غرفتهـا.

وتمـشى الـسرور في قلـب مريـم حـين سـمت لفظـة سـيدتي، وأصابـت منهـا مواقـع المـاء مـن قلـب العليـل الظامـئ.

لا شك أن القارئ لا يحتاج لتعريفه بهاتين السيدتين، سيما وقد سمع ذكر لفظتي «أديل» و«سلوى» وأدرك بدون ما تعب أن ساكنتي هذا البيت هما زوجة نجيب وأخت سعيد بك!

وما غابت سلوى قليلاً حتى عادت وأخذت مع أديل بيد مريم إلى حيث كانت النار والمضجع مهيئين وأقعداها وطفلتها على ذراعيها تحت الغطاء ثم أتيا بطبق عليه الطعام وجلستا تؤاكلانها وتؤنسانها حتى فرغت من أكلها وهي تهذي وتقول في نفسها: «أسرير وغطاء ونار وطعام وقد كنت طريدة شريدة على وشك أن أُنهر كما تنهر الكلاب وأموت مع طفلتي كما يموت ابن السبيل الغريب».

وإنها لتلتفت نحو أديل وسلوى بعينين تجول فيهما دمع الشكر وعرفان الجميل وتقول لقد أكرمتماني الكرامة كلها، وحادثتماني محادثة القرين، وجلستما معي علي بساط المساواة وعملتما معي العمل الكثير

على مثلي، فما أرق شمائلكما وأكرم عنصركما، فما أنتما من البشر بل أنتما ملكين كريمين، قالت هذا وطفقت تبكي. فقالت أديل:

- خففي عنك يا مريم فما نحن إلا بشر ضعفاء لا نعمل إلا ما أمرنا به السيد المسيح وما هذه الدار بداري ولكنها دار أمثالك اللاتي أضرت بهن عبر الدهر ومن يدخلها لا يسأل عن اسمه بل عن ألمه. فما شأنك؟ ولم تتألمين؟

- قلت لك يا سيدتي إني امرأة تعيسة ليس لها من يمتّ لها بحبل القرابة. شنق زوجها منذ سبعة أشهر في ساحة باب الخليل القدس

لأنه فرّ من الجندية مراراً. وتوفي حموها على اثر شنق ولده، وعقبته وفاة أمها العجوز، فبقيت وحيدة طريدة لا مأوى لي ولا عائل لهذه الطفلة اليتيمة.

فقاطعتاها أديل وسلوى قائلتين:

- وما اسم زوجك؟

- سالم، يا سيدتي!

فأخذت أديل وسلوى تنظران الواحدة إلى الأخرى بدهشة وأدركتا للحال أن ذلك المشنوق الذي نظرتاه في ساحة باب الخليل وأرادت أديل أن تضفر رأسه بالإكليل الذي كانت مزمعة أن تضعه على قبر تجيب ما هو زوج هذه التاعس.

وأرادت مريم أن تكتم السيدتين أمر جنينها فانحنت على طفلتها وكانت نائمة نوم اليتيمات يعودهنّ البؤس واليتم منذ الصغر على الانكماش تحت ذيل الانكسار. فانتبهت الطفلة لحرارة تلك القبل وجعلت تجول نظرها في فضاء تلك الغرفة كأنها ملاك يطل من سماء عظمته على أعمال الورى.

فأقبلت أديل إذ ذاك على الطفلة نلاعبها حاملة إياها بين يديها والطفلة تنظر كأنها تعجب مما تري. فقالت أديل:

- سيكون عما قريب لهذه الطفلة أخ وأخت يا مريم لأني أراك حاملاً. ففي أي شهر من بحملك أنت الآن؟

فتكلفت مريم ابتسامة ارتسمت على ذلك الثغر الجميل ونظرت نظر استحياء جعل السيدتين تشكان في أمرها فقالت أديل في نفسها وقد أدركت بفراستها بعض أمرها: ولعل قائد الاضطرار هو الذي حمل إليها هذا الجنين من طريق السفاح، وما أكثر المضطرات المغلوبات على أمرهن في هذا الزمان، سيما وأني لست أرى على وجه هذه المرأة شيئاً من الخلاعة ولا في كلامها شيئاً من التزويق شأن بنات الحانات والمومسات. ولنفرض أنها كذلك فقول السيد المسيح

«من منكم بلا خطية فليرجمها بحجر» يوقفنا من احتقارها ويصدنا عن تعييرها، ويغل أيدينا عن رجمها، ولعلها ليست تلك المرأة..

وفيما هي كذاك إذا بطارق على باب البيت الخارجي قطع عليها تأملها ففقزت لتطل من النافذة فإذا بها ترى ثلاثة أشخاص سيدة ورجلين قد ارتدوا بشارات الحداد ينتظرون عند المدخل، فأخبرت سلوى بقدوم زائرين وأشارت إليها بالاعتناء بمريم ريثما تنتهي من ضيوفها. ونزلت إلى الطابق السفلي ومذ فتحت الباب ووقع نظرها على الزائرين عرفت بينهم كاملاً وعهدها به قريب ولم تعرف الآخرين بعرّفها كامل بعد التحية بعمه موسى وابنته سعاد (خطيبته) الذين قدما من حلب للبحث عن نجيب وصعدت بهم إلى قاعة الاضياف.

وأن أديل لتسأل كاملاً عن سبب ارتدائه شارات الحداد مع عمه وخطيبته فأجابها حداداً على نجيب شقق عمه الذي ثبت قتله بيد أحد رجال الجندرمة ظناً منه بأنه جندي فار، وحسنه أديل زوجها نجيب. حزنت أديل لهذا المصاب بالرغم من فرحها بالتثبت من

وجـود زوجهـا في قيـد الحيـاة وعـزت ضيوفهـا عـلى فقـده.

واسـتطرد كامـل كلامـه مـع أديـل قائـلاً: وهـا إن عمـي مسـتعد لتسـليمك المبلـغ الـذي وضعتـه حماتـك عنـد المرحـوم أخيـه وقـد عـثر عـلى قيـده أثنـاء تفتيشـه أوراقـه، ولا شـك أنـك في حاجـة إليـه الآن. فشـكرت أديـل مـوسى عـلى عواطفـه الرقيقـة هـذه وإحساسـاته العاليـة واسـتلمت منـه المبلـغ المـودوع وقتئـذ عنـد أخيـه.

كامـل لم يكـن ذلـك الشـاب الـذي بـصرت بـه أديـل منـذ بضمـة أشـهر. إن كامـل الآن هـو ذلـك الشـاب الصامـت المتكلـم الـذي ينـم سـكوته عـن شيء في ضمـيره يؤلمـه، ويشـف كلامـه عـن سـأم رأى الحيـاة معـه ذميمـة. مـا سـبب ذلـك يـا تـرى؟ أظـن القـارئ يعـرف السـبب أمـا أديـل فتجهلـه.

نظـرت أديـل إلى كأهـل فـرأت بينـه اليـوم وبينـه أمـس بونـاً شاسـعاً وتطـوراً غريبـاً، مـع أنـه حـريٌّ بـأن يكـون الآن أحسـن مـما كان أمـس لأن خطيبتـه الجميلـة قريبـة منـه.. أكلُّ ذلـك جـزع وحـزن عـلى عـمّ خطيبتـه المتـوفى؟ أم أنـه يـرى المـرأة كـما يراهـا (بيـون) جميلـة كانـت أو قبيحـة فهـي تسـؤ ولا تـسرّ لأنهـا بجمالهـا تتعـب الـرأس وبقبحهـا تنهـك القلـب، وعهدنـا بـه ليـس ذلـك الرجـل؟.. لا بـد أن يكـون وراء الأكمـة مـا ورائهـا. بهـذا كانـت اديـل تهجـس وهـي تحـادث الزائريـن، وأنهـا لترسـل نظـرة خـرى إلى خطيبتـه فـترى نظـرة الكبريـاء والأنانيـة عـلى وجههـا وتـود الدخـول في إلى أعـاق فؤادهـا حتـى إذا مـا بلغتهـا أحاطـت بهـا الظلمـة فـلا تـرى سـبيلها. فعزمـت عـلى مداعبتهـا بالـكلام علّهـا تكشـف سر سـكوتها هـي أيضـاً. أهـوىً هـو أم جـزع عـلى فقـد عمهـا؟ فقالـت لهـا: إنـك جميلـة

يـا سـيدتي! فابتسـمت سـعاد ابتسـامة دلّـت أديـل عـلى أن بعـض النسـاء والأطفـال التـي تلهيهـا الألعـاب ويسـكرها المـدح والثنـاء وتفتنهـا الوعـود. ثـم اسـتطردت كلامهـا قائلـة: وحـريّ بمثلـك يـا سـعاد أن تتعـزي عـن وفـاة عمـك المرحـوم بوجـودك إلى جانـب خطيبـك الآن..

أمـا سـعاد فكانـت قبـل أن لفظـت أديـل لفظـة خطيـب تنظـر إلى جـمال أديـل نظـر الباهـت الذاهـل، ذاك الجـمال المعنـوي والحـسي الـذي تعجـز شـعن وصفـه لغـة البـشر وتفتكـر في زوجهـا نجيـب الـذي أحيتـه كـما مـر بنـا في مدينـة حلـب حبـاً لم يلهـه عـن هـذا الجـمال مـع بعـده عنـه. غـير أنهـا عنـد سـمعها لفظـة خطيـب لم تكـترث لهـا مـما دل أديـل عـلى أن سـعاد تهـوى مـع خطيبهـا شـخصاً آخـر تـودّ معـه أن تجمـع بـين حـب الاثنـين حبـاً لا صـدق ولا إخـلاص فيـه كـما هـو شـأن النسـاء الشـهوانيات العابـدات أنفسـهنّ.

وأرادت اديـل أن تواصـل مداعبهـا لسـعاد لتـأتي عـلى جميـع أطوارهـا وأخلاقهـا غـير أن صراخ الطفلـة طفلـة مريـم في الغرفـة الأخـرى جعـل الزائريـن يلتفتـون بعضهـم نحـو بعـض كان قـام في صدورهـم خلجـة شـك في أمـر أديـل مـع بعـد زوجهـا عنهـا، غـير أنهـا اسـتدركت الأمـر بفراسـتها فقالـت:

- امـرأة بائسـة تعيسـة شـنق زوجهـا منـذ مـدة قصـيرة في القـدس وليـس لهـا سـواه معـين وقريـب التجـأت إلى هـذا البيـت، فاسـتقبلتها عـلى الرحـب والسـعة غـير راجيـة مـن وراء ذلـك أجـراً ولا شـكراً.

فقالت سعاد - مسكينة هذه المرأة. هل لك يا سيدتي أن تسمحي لنا برؤيتها.

فأجابت أديل

- لا بأس من ذلك.

ونهض الزائرون تتقدمهم أديل حتى انتهت بهم إلى باب الغرفة المقيمة فيها مريم حيث طرقته لتعطي فرصة لنهاد لتتستر أو تنسل في الغرفة المجاورة ثم دخلت بهم الواحد اثر الآخر، ومذ وقعت عينا مريم على الداخلين ولمحت بينهم وجه كامل علت وجهها طبقة من اصفرار نسجته عليه كف الخوف والحقد واعترتها هزة سرت في عروقها وذهبت بعض رشدها، وأنها لترفع راسها هامة بالصياح فتخونها القوى، فتهوي برأسها على المنضدة ساترة وجهها وهي تهذي هذيان المحموم، وتقول بصوت متقطع: من أنت أيها!!.

غادر.. وما أتى بك.. لي هنا. لقد خدعتني وهربت.. أخرج من هذا المكان كي لا تراك عيناي! وا.. جنيني.. من يعولك إذا مت؟.. قالت هذا وبقيت فاغرة الفم، غائبة الرشد.

أما كاملاً فكان وقتئذ ذاهلاً كمن عاثت بعقله جنة ينظر إلى مريم وقد امتقع لونه، وهلع قلبه، وارتجفت رجلاه ووقف

كسفينة انحطت عليها الأعاصير وألقت بها في لجج الحيرة وتعذيب الضمير بينما كان موسى وابنته واقفين يتأملان هذا المشهد المؤثر والموقف الفجائي الغريب ويحاولان كشف غوامضه.

أمـا أديـل فاعترتهـا دهشـة كادت تحفـز أحشـاءها وخشـيت عـلى مريـم مـن عـارض يذهـب بحياتها فأومأت إلى كامـل وهـي تجهـل حقيقـة الأمـر بالخـروج والجلـوس في قاعـة الأضيـاف لئـلا يزيـد بوقوفـه هائـج اضطرابهـا ثـم ركعـت إلى جانـب السريـر رافعـة بصرهـا إلى صليـب باسـط ذراعيـه لاصـق بإحـدى جـدران الغرفـة ووجهـت أفكارهـا نحـو المصلـوب وجعلـت تصـلي.

وفيـما هـي كذلـك إذ شـعرت مريـم بترديـد أنفـاس إلى جانـب سريرهـا فنظـرت إلى أديـل قائلـة بصـوت يـكاد يخنقـه الحيـاء. مـا تصنـع سـيدتي هنـا؟

فأجابـت أديـل وهـي تومـئ إلى الصليـب: جئـت أصـلي لذلـك الشـهيد، ولـو أنصفـت لقالـت الشـهيدة.

فقالـت مريـم وقـد كادت تخنقهـا الزفـرات: اشـكي يـا سـيدتي إلى هـذا المصلـوب ظلـم البـشر لإخوانهـم البـشر وأعيـدي عـلى سـمعه مجـازر الانسـانية في عـصر المدنيـة. اشـكي أولئـك الذيـن يحملونـه أمامهم في سـاحات القتـل والطعـن مطأطـأ الـرأس خجـلاً واسـتياءً؛ لأنـه لم يعتـد السـير عـلى دم الأبريـاء. أمـا هـم فـلا يخجلـون صـلي لنـصرة الكـمال الانسـاني عـلى الأنانيـة، لنـصرة الحـق عـلى القـوة. لقيـام التضامـن الاجتماعـي والأخـوة العامـة بـين الأم والطوائـف والأفـراد منـام تنـازع البقـاء، صـلي لمدينـة القـدس مهـد هـذه التعاليـم لتكـون مثـلاً لباقـي الأمـم في الحيـاة الاجتماعيـة كـما كانـت نبراسـاً للحكمـة والهـدى. صـلي يـا سـيدتي لتحقيـق مـا ورد في التـوراة عـلى لسـان أشـعياء التـي أن الذئـب والحمـل يرعيـان معـا. صـلي لـكي تكـون

الأخـوة الانسـانية قبـل أن تكـون الأخـوة الحيوانيـة، في الأخـير صـلي لي أنـا الخاطئـة.. ولهـذا الشـاب الـذي سـلبني أثمـن شيء لـدي...

ثـم جعلـت تقـول بصـوت خافـت متقطـع: أيـن أنـا ومـن الـذي أمامـي؟. ومـاذا أقـول؟ وسـكنت تعبـة كأنهـا شـبح ماثـل مـن أشـباح المـوتى: ولمـا ألمـت أديـل بأطـراف أمـر مريـم وفهمـت شـيئاً عـن حقيقـة حالتهـا تركتهـا ترتـاح بعـد أن غطـت وجههـا بشـمار خفيـف وأخـذت بيـد السـيد مـوسى والسـيدة سـعاد إلى قاعـة الأضيـاف كانـت تظـن أن كامـلاً ينتظـر هنالـك، غـير أنهـم عندمـا دخلـوا القاعـة ولم يجـدوا فيهـا كامـلاً علمـوا أنـه هـرب خشـية سـوء العاقبـة.

وأقبـل السـيد مـوسى مـع ابنتـه نحـو أديـل يظهـران أسـفهما عـلى مـا مثـل أمامهـما وخرجـا يتعـثران بأذيـال العـار والخجـل ويتوقـدان حقـداً وحنقـاً عـلى كامـل.

الفصل الثالث عشر

(عواصف الضمير)

•••

الفصل خريف والطقس بارد والطبيعة كئيبة والأشجار عارية..

يمثل هذا الفصل سن الشيخوخة، والشيخوخة مرض يجرد الإنسان من أثواب صباه فلا يعود يرى أحلام الصبا وأفراح الشباب إلا أخيلة تمر أمامه وأشباحاً تقرب إليه حينه وتزيد في مرضه.

والإنسان في مثل هذا الفصل يشارك الطبيعة في حزنها ويكون أميل إلى التأمل والسكينة منه إلى الفرح.

في عاشر تشرين ثاني سنة ١٩١٥ من ذاك الفصل، في الطريق المودي إلى جبل الزيتون، وأظنه الطريق الذي سار فيه يهوذا الاسخريوطي وهو ذاهب ليشنق نفسه كما مرّ في تاريخ اليهودية أي منذ ١٨٧٧ سنة، وقف شاب في الثامنة والعشرين من عمره ضاماً يديه إلى صدره ومطرقاً رأسه إلى الأرض يتأمل تأملاً عميقاً كأنه سراج مريض الفتيلة يلمع في ظلمات اليأس.

الشاب ربعة في الرجال. رقيق الجسم، ذو عينين سوداوين عليه بزة جندي، وقف في ذاك الشارع وكان تارة تمشي وأخرى يتوقف وهو يومئ بيديه كأن جنة عاثت بعقله...

من نظر إلى هذا الشاب وقتئذ ظنه يمثل دور يهوذا الإسخريوطي في الطريق التي سار فيها ليشنق نفسه على اثر بيعه السيد المسيح بثلاثين

مـن الفضـة. غـير أن هـذا الشـاب كان أعقـل مـن ذلـك الاسـخريوطي...

وأنه ليتوقف قليلاً ويقول في نفسـه:

السرقــة جــزم يعاقــب عليــه في نظــر القانــون وفي نظــر النــاس، إذا كان المـسروق مـالاً: أمـا إذا كان المـسروق مـا هـو أسـمى مـن المـال وهـو الـشرف فجديـر بمـن يـسرق الـشرف نفسـه أن يكـون رأس الجانـين وأكـبر المجرمـين.

لقـد سرقـت أثمـن شيء عنـد تلـك العصبيـة وعبثـت بأسـمى مـا تتحـلّى بـه المـروءة وأصابـت مـن شرفهـا مقتـلاً وتركهـا بـين الحيـاة والمـوت تنـدب سـوء طالعهـا وتلعـن البطـن الـذي تحملهـا، فـماذا يكـون جـزائي؟.

وعدتهـا باتخاذهـا امـرأة شرعيـة وبإعالـة طفلتهـا وأن أكـون أبـاً لجنينهـا وحاميـاً لعرضهـا وذمارهـا ثـم هربـت وتركهـا وشـأنها. فـماذا عـسى يكـون جـزائي؟

لا أجـد مـادة مـن مـواد قانـون الجـزاء تقـوم بقصـاصي وتكفـر عـن ذنبـي. وهبنـي هربـت مـن يـد القانـون فهـل أهـرب مـن محكمـة ضمـيري التـي هـي ألصـق بي مـن جلـدي وأقـرب لي مـن ظـلي.. لا مهـرب لي مـن عـذاب الوجـدان وعواصـف الضمـير إلا في الانتحـار! في الانتحـار راحتـي وخـلاصي..

ثـم مـر بيـده عـلى جبينـه واسـتطرد مناجـاة نفسـه قائـلاً: أن هـذه المـرأة تتعـذب الآن بفضـل غـدري وخيانتـي، واحتـمال الشـتاء الدائـم أسـهل مـن احتـمال السـعادة المسـلوبة..

أحببتها ولم أكن رجلاً في حبي بل طفلاً. أحببتها لصورتها الجسمانية فما أضعف همتي وأصغر نفسي! فليتني لقيت أجلي قبل أن مرَّ ذلك الخاطر الفاسد في ذهني.

سوف أنتحر في الانتحار سلواي وتعزيتي، ولكن كلا! لا يقدم امرؤٌ على الانتحار وبه ذرة من عقل وقطرة من دم فهل أنا ذلك الرجل؟ كلا لا أنتحر بل أبرّ بوعدي لتلك الصبية التي حملها حبها وإخلاصها لي على أن تجود علي أعز شيء لديها، بل قليل لها مني أن أمنحها حياتي، فكيف أضن عليها بقلي.

ولكني مرتبطٌ بسعاد خطيبتي.. ويحي أقول هذا ولا استحيي، أأخون شهد خطيبتي وأخدع امرأة غريبة فقدت زوجها شنقاً في وقت واحد؟. ولكن كلا لم أخن عهد خطيبتي ولن أخدع بعد هذ المرأة! إن خطيبتي هي التي خانت عهدي. إنني لم أقرأ في عينيها إخلاصاً ووفاء منذ وصولها القدس حتى الآن. إنها تظهر خلاف ما تبطن. إنها بتعلقها برئيسي الضابط فؤاد (هكذا كان اسمه) وميلها إلى مداعبته ومحاولتها كان ذلك عني تريد أن تجمع بين رجلين في وقت واحد شأن النساء الشهوانيات الغير وفيات. إنها لخيانة لا ينكرها إلا من ينكر الشمس، إن خرقي لناموس هذه الخطي حق وعدل وما هذا الخرق إلا انتقام لتلك الخيانة الواضحة. ولكن ويحي! أَأُحارب الفساد بفساد أعظم وأخدع تلك المرأة البريئة؟ سعاد لم تظهر لي إخلاصاً قط وحسبي دليلاً على ذلك نفورها مني وتكلفها في الحديث معي وتعلقها برئيسي الضابط.

أأحبها وتحب غيري إن ذلك كان مرّاً

أما مريم فامرأة شقية فقدت زوجها شنقاً وأصبحت شريدة طريدة ليس من يمت لها بحبل القرابة، طافت وجه الرزق علها تجد ما يعينها على تربية يتيمتها ولما ضاقت بها السبل لاح لها سراب فحسبته ماء فأمته فإذا هو شاب اسمه كامل فتشاكيا فأقسم لها هذا يمين الإخلاص فصدقته، ثم استسلما لشؤون الهوى، وافترشها ما شاء.. وللهوى شؤون وأحكام... وكان ليل وكان صباح فإذا بالماء سراب خادع وإذا بها تندب سوء حظها وتحرق الارم على سلامة نيتها وتصديقها كلام داك الخادع. أيهما إذن أنقى سريرة وأطيب قلباً؟ سعاد أم مريم. هذه وثقت بكلامي وسلمتني أثمن ما عندها ولا ذنب لها إلا تمسكها بنصف ما فاه به ذلك المشرع العظيم:

كونوا ودعاء كالحمام وحكماء كالحياة، واهمالها النصف الثاني أن كثيرات من اللواتي عضتهنّ أنياب الفاقة أشرف من كثيرات من اللاتي تحنى الرؤوس أمامهن... وتلك ترتبط بي وتوهمني أنها تحبني وفي الخفاء تلعب بقلب وأثمنها عليه وتحاول أن تجمع بين حبي وحب ذلك الضابط. ومن يدري أنها قد أحيت ثالثاً ورابعاً وأنها نقية من أكف الملامسين!. إنها تمثل معي الدور الذي مثلته أنا مع مريم إلا اني لا أريد أن أكون وديعاً كالحمام فقط سأكون حكيماً كالحية أيضاً وأنبذ عني رباط سعاد الغادرة الخائنة وادعها تلتحق بمن تشاء، أما مريم الشقية الوديعة فسأبر بوعدي لها واتخذها امرأة شرعية لي.. إنها الآن في بيت أديل تلك المرأة البارة الشريفة ذلك الملاك السماوي الطاهر.

ومـن يعلـم أنهـا تتعـذب الآن بالرغـم عـن كل مـا يحيـط بهـا مـن أنـواع الهنـاء والعنايـة؟...

وإن هـذا الشـاب وقـد عرفـه القـارئ الكريـم ليتوقـف عـن الـكلام توقـف تعـب أنهكتـه شـقة السـفر، وقـد أخـرج مـن أعـماق فـؤاده تنهـده حـارة دلـت عـلى شـدة تأثـره ثـم اغرورقـت عينـاه بالدمـوع. تلـك هـي دمـوع الندامـة.. دمـوع عواصـف الضمـير..!

إذا بـكى الرجـل فمـن أعـماق قلبـه أمـا المـرأة فكثـيراً مـا تبـكي مـن أطـراف عيونهـا.

ثـم مسـح بمنديلـه عينيـه وقـال بصـوت مرتعـش: «أيـة قيمـة الحيـاة إذا لم ننفـق في سـبيل مبـدأ. وهـل هـذه الملـذات الحيوانيـة المتشـابهة في كل الحيـاة؟».

لا لعمـري. إن وراء الحيـاة لروحـاً أسـمى مـن بـلادة المـادة وخيـالاً لا يجـب أن يسـمو عـلى كل الأرضيـات، وضمـيراً ينبغـي أن يرتعـش مـع الانسـانية المتألمـة مـن جـور الجائريـن، وكل مـن لا يشـعر مـع بنـي الإنسـان

لا يحـق لـه أن يحمـل شرف الانسـانية. نعـم يجـب أن اعـترف لمريـم بندامتـي وأتـوب لهـا عـن جرمـي، وأكفّـر عـن ذنبـي نحوهـا بـأن أعـرض يـدي. لا بـل قلبـي عليهـا، وسـأبتر ذلـك العضـو الفاسـد المتمـرد «سـعاد» حتـى لا أكـون مذنبـاً نحـو الانسـانية أيضـاً.. نعـم.. نعـم.. سـأذهب إلى ذلـك الملاك المتأنـس وأبـوح لـه بـكل مـا في فكـري وبمـا أنـا عـازم عليـه.. وأقـوم لهـا بـكل نفقتهـا عـلى مريـم وطفلتهـا وأطلـب إليهـا مضاعفـة العنايـة

بهـا ومتـى وثقـت بتوبتـي وندامتـي وإخـلاصي ورضيـت غنـي واسـتحقيتها امـرأة لي أحـدد يـوم الاكليـل..)

ومـا كاد كامـل ينهـي كلامـه حتـى ارتمـى عـلى مقعـد مـن الحجـر كان قائمـاً في وسـط ذلـك الطريـق، وبعـد بضعـة دقائـق نهـض مـن مكانـه وعـلى وجهـه شـعاع بسـطته يـد التوبـة والندامـة وسـار في الطريـق المـؤدي إلى بيـت أديـل حيـث مريـم موجـودة ليخـرج أفـكاره التـي مـرت بنـا في هـذا الفصـل إلى حيـز الفعـل.

الفصل الرابع عشر
(ديوان عالية)

•••

عاليـة مدينـة جميلـة واقعـة عـلى قمـة أحـد جبـال لبنـان تبعـد عـن بـيروت نحـو سـت سـاعات. وهـي مصيـف يؤمـه المصطافـون مـن المصريـين والسـوريين لجـمال موقعـه الطبيعـي ومـا فيـه مـن توفـر أسـباب الراحـة للغريـب المصطـاف.

في تلـك المدينـة، عـام ١٩١٥ شـكل جـمال باشـا قائـد الفيلـق العثـماني الرابـع ديوانـاً عرفيـاً حكـم فيـه عـلى نجبـاء الأمـة العربيـة الذيـن تمكـن مـن القبـض عليهـم بالشـنق والصلـب لأنهـم كانـوا قـد قامـوا بنهضـة طبيعيـة ونهضـوا يطالبـون بحقوقهـم الطبيعيـة التـي لا مـسّ فيهـا لكرامـة الآخريـن وليـس فيهـا مـا يناقـض السـنن الأرضيـة أو الشرائـع السـماوية، فكأنـه باختيـاره هـذا المحـل المرتفـع المعتـزل، أراد أن يـشرك معـه السـماء في اعمالـه الفظيعـة فضـلاً عـن الأرض، ولم يـدر أنـه بذلـك قـد أقامهـا شـاهداً عـلى ظلـه وحجـة عـلى وحشـيته.

أن أنـور وطلعـت وجـمال وغيرهـم مـن الاتحاديـن القابضـين وقتئـذ عـلى أزمـة الاحـكام في تركيـا قـد أعانـوا العـدو، وهـم مشـتبكون في الخـارج بحـرب طاحنـة، بإطـلاق ايـدي التدمـير والتخريـب في الداخـل والارهـاق والتعذيـب، واعملـوا السـيوف والرصـاص والمشـانق في رقـاب رعاياهـم الـروم والأرمـن والعـرب واسـتباحوا أعراضهـم ونسـوانهم وسـبوا نسـاءهم وأولادهـم وبلغـوا مـن بهـظ العـرب مبلغـاً أغضـب الشريـف الهاشـمي

سليل سيد البطحاء فخرج خروج الأسد من عرينه وأستل مرهف أبيه بمينه ونهض بأنجاله الأسود وأعلن قطع علاقاته بالحكومة التركية وانضمامه إلى دول الحلفاء في أوائل شهر يونيو سنة ١٩١٦ (٩ شعبان ١٣٣٤) فاستولى جيشه على مكة المكرمة وجدة والطائف وغيرها من الأقطار الحجازية وحاصروا الحامية العثمانية في المدينة المنورة ونودي بالشريف حسين بن علي ملكاً على الحجاز وأجمعت دول الحلفاء كلها على الاعتراف به.

إن وزارة الاتحاد والترقي قد اخطأت بتشكيلها ذلك الديوان العرفي في عالية أيما خطأ لأنها أظهرت نفسها بعد تمرنها على الحكم مدة لا تقل عن أربعة أجيال أنها غير أهل لحكم الشعوب وإدارة شؤون الأمم. إنها بتصرفها هذا أظهرت جهلها أمور السياسة وبعدها عن الديمقراطية وتشبثها بالروح الأوتوقراطية التي لم تعد اليوم صالحة لتأييد السّطات وحكم الشعوب. إنها صوبت أعظم طعنة إلى صدر أعظم أمّة تدين بدينها (فضلاً عن العرب المسيحيين). هي في حاجة إليها لحفظ كيانها ودوام حكمها وهي العرب الإسلام. إن جاويد وطلعت وجمال أنور هؤلاء الأربعة الذين كان بيدهم الحل والعقد قد طوَّحوا بملكهم وسيادتهم في مهاوي الدمار والملاك بتشكيلهم ذلك الديوان الذي لم يكن مجرموه إلا قوما أرادوا مجاراة الطبيعة في نواميسها والأمم في تطورها، فقاموا يطالبون بالإصلاح واللامركزية ومحاربة الظلم وإقامة العدل الذي هو أساس الملك إلى أن سكان إعلان الحرب الكبرى فاستنهزت وزارة الاتحاد والترقي بزعامة أولئك الأربعة رجال هذه الفرصة، فبعثوا بأحدهم جمال باشا إلى سورية لتنفيذ ما طاشت به

أحلامهم وسوَّلت لهم حداثة عهدهم بالأحكام فتألف ديوان أراد أن يجذب إليه شعوب العرب بالقتل والشنق وقد جهلوا أنه لا يقرب القلب إلى القلب كما أنه لا يفل الحديد إلا الحديد.. ديوان كان من نتائج إعلان الثورة في الحجاز واعتراف الدول في خريف سنة ١٩١٦ بدولة عربية رئيسها الملك حسين الهاشمي وتأليف قوات عربية يقودها ثالث أنجاله الأمير فيصل في ساحات القتال جنباً إلى جنب مع الحلفاء لاستخلاص البلاد من أيدي الأتراك واستقلالها وتحطيم ذلك العرش الذي أدمى قلب العرب والإسلام بتصويبه تلك الطعنة إلى صدر أنجب أبنائه وخيرة رجاله. طعنة انقلبت إليهم فباتوا يقرعون سنّ الندم ويحرقون الارم على ذلك المُلك المندثر والعرش المتداعي. هذه هي سياسة الاتحاد والترقي وهذه هي حكمة رجالها!

وكأن الله عز وجل رأى أن وقعت إنزال القصاص يرد الأمة التي عم ظلمها وزاد طغيانها، وسامت شعوبها الذل والهوان، قد حان، فحجر قلب رجالها وأبعدهم عن الحكمة والهدى، «ومن يضلل الله فما له من هاد».

في ذلك الديوان وضع جلاد سوريا جمال باشا نفسه موضع الاله في يده الحياة والممات ومن فمه خرجت كملة الاعدام على أناس لم يكن جرمهم إلا المطالبة برفع الظلم وإقامة العدل وإعطاء كل ذي حق حقه. خرجت لفظة الموت من بين شفتي ذاك الطاغية فيتمت أطفال وأيمت نساء، ولطمت نساء، وأدمت قلب أمة عظيمة لها في التاريخ حسنات لا يجب أن تقابل مثل هذه السيئات.

برّر ذلك الطاغية عمله يومئذ بالأوراق والمخابرات المودعة في منزلي قنصلي فرنسا في بيروت والشام، يوم ألجأ أولئك الأحرار تصامُّ الأتراك وتحجرُ قلوبهم إلى الاستغاثة بدولتي الانكليز والفرنسيس لتحقيق مساعيهم والحصول على ضالتهم فكان نصيبهم من الأتراك تعليقهم على الأعواد، فكانوا أبطال مشانق صحّ فيهم قول الشاعر: «علوٌ في الحياة وفي الممات».

وهؤلاء هم ضحايا ذلك الديوان، معظمهم نفذ فيهم حكم الإعدام في ساحات بيروت والشام وبعضهم حكم عليهم بالنفي المؤبد وبالأشغال الشاقة:

السادة عبد الحميد بك الزهراوي، شفيق باك المؤيد، شكري بك العسلي عبد الغني العريس، سيف الدين الخطيب، محمود المحمصاني، محمد المحمصاني، صالح بك حيدر، عبد الوهاب بك الانكليزي، رفيق رزق سلوم، عمر حمد، عارف الشهابي، عبد الكريم الخليل، الشيخ أحمد طباره، أمير علي الارفازي، حافظ بك السعيد، البر حمصي، محمود العجم، نايف تللو، محمد سليم بن عابدين، سعيد الكرمي، سليم أحمد عبد الهادي، سليم بك جزائري، أمين لطفي بك، عبد القادر الخرسا، رشدي بك الشمعة، محمد الشنطي، جرجي حداد، سعيد عقل، بترو باولي، بيطر علي، محمد سالم بن مصطفي مظلوم، أمين ظاهر، نوري القاضي، توفيق البساط، جلال البخاري، محمد علي الحلبي، رضا بيك الصلح، رياض بك صلح، مصطفي سميسمة، أسعد حيدر، حسين بك حيدر، يوسف سلمان الشحيبر، توفيق الناطور،

وكثيرون غير هؤلاء لا يقل عددهم عن الستين كانوا وقتئذ في مصر وأوروبا حكم عليهم بالإعدام غيابياً كخليل بك مطران الشاعر المشهور، السادة داود بركات وأصحاب المقطم، وحقي بك العظم، ورفيق بك العظم وشكري غانم الخ...

ولم يكتف رجال باشا بذلك حتى أبعد عائلات هؤلاء الشهداء إلى بلاد الأناضول. لقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» أي لا أحد يجازي عن آخر. فما ذنب النساء والأطفال ومن لم يحاكم في ديوان الحرب العرفي من الرجال؟

ما أنسَ لا أنسَ يوم اصطفت تلك المشانق في ساحتي بيروت والشام تستقبل أولئك الأبطال المرتدين بثيابهم الطويلة البيضاء تخفرهم الجند والفرسان وعلى وجه كل منهم الرجولة والشجاعة، مستخفين بالموت وغير حافلين بالشنق والصلب!

ما أنسَ لا أنسَ ساعة شدت الحبال إلى أعناق أولئك الأبطال وتدلت ألسنتهم، وارتفعت أرواحهم إلى السماء، وقضي الأمر! وجمال جالس في قصره إلى خوان الكاس والطاس مع بعض الخونة الجرابزة من جواسيس الأمة العربية المفاليك يحبذون عمله ويتزلفون إليه ويحرقون البخور العاطل أمامه.

ما أنسَ لا أنسَ يوم وقف السيد عمر حمد إلى جانب المقصلة وصاح صيحة مشت القلوب في الصدور وقال:

الآن ارقص رقصة الطرب فليرقب الأنذال عن كثب

أيخـاف موتـاً مولـعٌ ولهٌ بالمجد يهوى أمة العرب

والعريـسي حينما هتف قائلاً:

مرحبـاً بـك يـا أرجوحـة الأبطـال! لا تبنـى العـروش إلا عـلى الجماجـم. وهـذه جماجمنـا أسـاس المملكـة العربيـة فنحـن باسـم العـرب نحيـى وباسـم العـرب نمـوت.

وبيطـر علي يوم صاح بقاتليه:

إن أرواحنـا سـتكون نـوراً ونـاراً. نـوراً يـضيء السـبيل لأبنائنـا في المسـتقبل ونـار تحـرق قلوبكـم أيهـا الظالمـون!

ومحمد المحمصاني مستقبلاً الموت بقوله:

يجـب أن نتفـاءل خـيراً بهـذا المـوت. فالوحـدة الايطاليـة تأسسـت بعـد إعـدام اثنـي عـشر مـن أبطالهـا وكان بينهـما اخـوان وهـا نحـن الآن أحـد عـشر وأنـا وشـقيقي اخـوان فلتحـي الوحـدة العربيـة.

وأحمـد المحمصاني يوم صاح منتقي:

إن أجسـامنا بعـد موتهـا سـتغدو ذرات تكـون كل واحـدة منهـا روحـاً كبـيرة لإنشـاء الدولـة العربيـة وأخـذ الانتقـام.

في وسـط قاعـة ذلـك الديـوان تحـت أرز لبنـان في مدينـة عاليـة في سـادس كانـون أول سـنة ١٩١٥ وقـف رجـلان أحدهـما شـيخ اشـتعل رأسـه شـيباً والثـاني شـاب في ربيـع الثـاني والثلاثـين مكبلـين بالحديـد تخمرهـما ثلـة مـن رجـال الشرطـة والـدرك مدججـين بالسـلاح الكامـل والحـراب في رؤوس بنادقهـم.

وقفا وقد ارتسمت على وجهيها خطوط رسمتها يد التعب وسوء التغذية وقد تلألأت أعينهما بماء الشجاعة والصراحة كأنهما غير حافلين بحرج موقفهما.

وقفا في وسط ذلك الديوان وأرواح الشهداء الذين حكم عليهم من اخوانهم العرب معلقة في فضاء تلك الغرفة، مطلة عليهما من سماء مجدهم ومشجعة إياهما على الثبات بإزاء ما سوف يصدره ضدهما أولئك الجالسون على مقاعد ذلك الديوان الجائر.

هذان الرجلان هما الضابط نجيب والقائد: سعيد بك ولا أظن القارئ نسي يوم أحاطت الجنود بهما وهما يتحادثان في خيمتهما فانهما ما كادا يصحوان وقتئذ من غيبوبتهما ويعودان إلى رشدهما سيما عندما رأيا شرطيين بحراب لامعة علقت برؤوس بنادقهما حتى أيقنا بسوء المصير وتحققا أن قد انكشف أمرهما وجاء يوم عذابهما، فما كان من سعيد بك إلا سأل الجنديين بالتركية قائلاً:

- ما الذي حملكما على الوقوف عند باب الخيمة أيها الجنديان؟

- أمر رئيسنا.

- لعل رئيسكما أشار إليكما بخفر خيمة غير هذه فجئتما إلى هنا سهواً. لذلك آمركما بما لي من حق السلطة التي يخولني إياها عليكما مقامي وردائي العسكري بالانصراف من باب الخيمة والتحقق من رئيسكما عن الخيمة الحرية بالحفر.

- لا نتحول من باب هذه الخيمة يا سيدي.

وما هي إلا لحظة حتى دخل الخيمة ضابط يتبعه أربعة جنود وقال بالتركية بعد أن أدى التحية العسكرية: بناء على الأمر الوارد من قائد الفيلق الرابع في سوريا كلفت بالقبض عليكما وتكبيلكما بالحديد وما كاد ينهي كلامه حتى انقض الجنود على سعيد بك ونجيب ووضعوا القيود في أيديهما.

ولم يقاوم سعيد بك ونجيب الجنود بل قالا لهم بجأش ثابت وروع هادئ: كلصوص مجرمين تكيلوننا بالحديد؟ أهذا هو جزاء الدفاع والاستماتة في معارك أمس؟ نحن لا نقاومكم قط بل نمد أيدينا لكم ونساعدكم على وضع الحديد فيها. نعم إن هذه الأيدي مستحقة هذه القيود لأنها حملت سيفاً كان يجب أن لا يحمل في تلك المعارك!....

وبعد أن وضعوا على القائد الشيخ ملابسه وفتشوا أشياءه وأشياء نجيب أركبوهما مع جنديين كلفا بحراستهما كانا واقفين خارج الخيمة ما لبثا أن سارا بهما إلى حيث لا يدريان وسار البغلان يطويان السهول ويقطعان الفيافي وبعد سفر شاق استغرق أيام وليالي وصلا اطنة حيث اركبا عربة بحراسة ذانك الجنديين حتى وصلوا بلدة راجو بولاية حلب، ومنها ركبوا القطار إلى حلب، فالشام حيث سلمت أوراقهما ووضعها في سجن المجرمين السياسيين وفي اليوم الثاني أرسلا إلى عالية حيث رأيتهما منذ حين واقفين في ديوان الحرب العرفي لاستجوابهما...

الديوان قاعة كبيرة قام في وسطها مائدة مستطيلة أحاطت بها مقاعد ملأ فراغها رجال عسكريون اختلفت نزعاتهم وتباينت أخلاقهم واستوت درجاتهم العقلية، أقامها جمال باشا للتحقيق في قضايا

المجرمين السياسيين كآله محركة يديرهم كيف شاء وهب وجد بينهم أهل ذكاء وضمائر حية فهل في استطاعتهم مقاومة ذاك الطاغية وعدم الائتمار بأمره والنهي بنهيه. ولكن النفس الكبيرة والضمير الحر يأبيان أن يكونا آلة خراب في يد آخر مهما كان ذا حول وطول وهذا ما دل على أن ذلك الديوان كان خلوا من مثل هذا النوع من الرجال. وقف القائد والضابط في وسط تلك القاعة يتأملان هؤلاء المستندين إلى مقاعدهم ولم يكونوا في الحقيقة من ذات الديوان إلا أصفاراً إلى شمال العدد وفيما هما كذاك إذا بأحد أولئك وأظنه المحقق قد نظر إلى القائد شزراً وقال له بلهجة المستبد:

- لقد ظهر من الأوراق التي وجدت في منزلي قنصل فرنسا في بيروت والشام أنك كنت أحد أعضاء المنتدى الأدبي في الاستانة مع عبد الكريم الخليل ورضا بك الصلح وعبد الحميد الزهراوي وغيرهم ومن الداخلين في الجمعية السرية التي ترمي إلى الاستقلال العربي تحت وصاية الانكليز والفرنسيس وحيث أن قانون من يخالف أوامر الدولة في وقت الحرب بعيد ذاك خيانة للدولة والوطن ومروقاً عن الدين فقد قرر ديوان الحرب العرفي تجريمك سياسياً وإحالة أوراقك إلى مقام قيادة الفيلق الرابع العامة للتصديق عليها..

فقال القائد برباطة جأش وقلب هادئ: إذا كان ذاك هو ذنبي فحسبي به فخراً وتعزية عند موتي. إذا كان حبي لأمتي وسعي وراء استقلال العرب يعدان جناية فنعم الخيانة واسم الخائن .

- فقال المحقق وقد استشاط غضباً. أتعترف بذنبك إذن؟

- أنـا لا أنكـر شـيئاً صـدر منـي كمـن يكـون عنـد العمـل بطـلاً صنديـداً وعنـد التحقيـق نـذلاً رعديـداً كلا أنـا لا أتنصـل مـن تبعـة مـا أعمـل ولا أخـاف مـن أن أطالـب بالبينـة والبرهـان أنـا وإن لم يظهـر مـن الأوراق المذكـورة مـا يدلكـم عـلى ترجمـة حـالي فـإني أقـول لكـم ولا أخـاف إني عـربي وأحـب العـرب وأسـعى وراء اسـتقلال العـرب قـولاً وعمـلاً. فاصـدروا أحكامكـم ومـروا بمـا شـئتم فالمـوت لا بـد منـه.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

فقـال المحقـق وهـو ينظـر إلى الأعضـاء بعـين الدهشـة: كفـى! كفـى! | إن أعظـم مـا يوخـذ عليـة هـذا الرجـل هـو كلامـه هـذا!...

ثـم التفـت نحـو نجيـب وقـال مشـيراً إلى جريـدة كانـت بيـده: وأنـت أيهـا الشـاب لقـد أسـفر التحقيـق واعـترف بعـض رفاقـك أنـك كنـت كاتـم سر الجمعيـة الثوريـة العربيـة وكاتـب هـذا البـلاغ المنشـور في هـذه الجريـدة، تكلـم دفاعـاً نفسـك!

فقـال نجيـب بـبرودة: هـل لسـيدي أن يسـمح لي بقـراءة هـذا البـلاغ بصـوت عـالٍ لأتحقـق جيـداً فيـما إذا كان لي أم لكاتـب آخـر.

فقـال المحقـق: - ولمَ بصوت عالٍ أيها الخائن الوقح

- لأنـه كـما أن لـكل كاتـب طريقـة في الكتابـة كذلـك لـكل قـارئ طريقـة في القـراءة يـا سـيدي وقـد كان نصيبـي مـن ذلـك تلـك العـادة.

فقـال المحقـق وهـو يحفـو شـاربيه: - إنـك مسـتهتر أيهـا الشـقي أو تظـن أن ديـوان الحـرب لعبـة يلهـو بهـا أمثالـك الخونـة؟ تكلـم ألسـت أحـد أعضـاء

تلك الجمعية الثورية التي كانت تصدر أمثال هذا البلاغ المملوء سماً زعافاً والمفكك عرى اتحاد هذه المملكة.

وشرع نجيب في قراءة البلاغ الآتي:

صرخة الأجيال

وصوت

الآباء إلى الأبناء

«أيتها الأمة العربية يا نوابها يا فتيانها الأحرار»

يا ورثة مجد الشرق، يا من لا يبيتون على ضيم. هذا صوت آبائكم من رمسهم وأنين مدينتكم من رمسها وصرخة تاريخكم من لحده، هذا هو الحق وما بعد الحق إلا الضلال.

إن نظرة واحدة تلقونها على صفحات التاريخ تريكم أن لا تغيب شمس يوم ولا يتوارى هلال شهر ولا تنطوي صفحة عام إلا وفي بلادكم من مصائب الترك ورزايا سلالة المخربين ما لم تراه أحقر الأمم وما لم تعانيه أذل الشعوب.

اي عربي يذكر الاندلس ولا تصطك ركبتاه حينما يسمع أن أميرها استجار بسلطان الترك من غارة الافرنج فلم يجره مخافة أن ينال الخلافة حتى ذهبت الأندلس وانطوت في كفانها حضارة العرب وفخر الفاتحين؟ أي عربي يتصور يوم بغداد العصيب يوم دك الأتراك معالم المدنية العربية وجعلوا خزائن علومها وآدابها جسراً لدجلة والفرات وطعمة المياه والأسماك. أي عربي يذكر أخاه في تونس والجزائر اللتين

سلمهما الترك للافرنج بعد أن أفنوا مئات الألوف من العرب ولا يبكيه ويتمنى أن يثأر له ويلعن يوماً صافح في صباحه تركيا. أي عربي يعرف كيف بيعت طرابلس وبرقة وانقطعت كل صلة للعرب في افريقيا ويقرأ أنباء ضحايا العرب في صحرائها ويذكر أن فتيان الترك هم سماسرتها في سلانيك ولا ينفطر كبده لما ينزل بمسكين برقة وأشراف جارتها.

بل أي عربي يتمشى في شرايينه دم الشرف وينبض عرقه لاسم العرب ويقلب بين كفيه هذه الصحيفة التاريخية المخضبة بدماء العرب وضياع بلادهم واستبعاد شعوبهم ويعلم أن الاتراك هم وحدهم سبب هذه الفوادح فلا ينفر إلى قومه ويعمل سيفه في رقاب هؤلاء الباغين المخربين.

يا قوم إنكم لولا هؤلاء الذين قال رسول الله صلعم فيهم (من اذى العرب فقد آذاني) لكنتم اليوم خير أمة للناس تأمرون بالمعروف بما أوتيتم من علم وآداب محاهما الترك وتنهون عن المنكر بما ورثتموه من الأخلاق والفضائل التي أفسدها المفسدون ولكن مهما تناسيتم التاريخ وأغلفتم العبر فهلا ذكرتم يومكم وغدكم؟ هل جاءتكم أنباء جاويد سمسار الترك الذي طرح بلادكم بالمزاد العلني في أسواق أوروبا فرهن مرافقها وباع مناجمها ووهب امتيازاتها وخبراتها لينال هو الأموال التي لم ينفق منها درهم واحد على بلادكم وهي إنما أخذت حتى أصبحت البلاد تحت رحمة الأجنبي وفسح أمامه محال الاحتلال؟

أم هل أتاكم حديث طلعت وصاحبه الذي جيش الجيوش العربية

ليسخرها لقتل أبناء العرب في اليمن والعراق حتى تكونوا الذين يخربون بيوتهم بأيديهم.

أم هل تعلموا أن أموال المعارف التي تجبي من بلادكم يرسل بها أبناء الاتراك والأرمن واليهود إلى أوروبا ويحرم منها أبناؤكم وفلذات أكبادكم أم أنتم قد نسيتم أن القوم قتلوا ألفتكم منذ استبدوا كم وجاء أبناؤكم الآن يعملون على محو أثارها.

ثم أرأيتم يا قوم كيف أوقعوا الفشل في مؤتمركم بباريس وضربوا بما وعدوكم به عرض الحائط وجعلوكم سخرية وهزءا أمام العالم حتى أفهموا أوروبا أن صعلوكاً من صعاليكهم قادر على أن يفرق صفوفكم الأمامية ويجعلكم مضغة الأفواه؟

ألم تروا رجالهم يصطادون أخوتكم وأبناءكم في بيروت صيد الحمام ويكافئون الذين يبرزون منهم في هذا الصيد؟ فلم لا تشفقون على أنفسكم؟ أم لا تؤلفون العصابات منكم للتنكيل بهم؟ لم لا تدفعون هذا الذل والعار عن أنفسكم وأمامكم ذلك الجبل الشامخ الذي يجير من يحتله؟ أتصبرون على الضيم إلى أن يفني آخر رجل منكم؟

أي علاقة لكم بالترك وماذا استفدتم من العثمانية؟

إن كنتم تتوهمون بأن الترك المخربين مسلمين يجب عليكم احترام إخائهم فهل تعتبرون مقوضي صروح مجد الاسلام وبائعي بلاد العرب وقاتلي لغة القرآن وراهني ولاية الحجاز تنفق على مومسات الترك هل تعاون هؤلاء مسلمين؟

وعلى هذا فأول ما يجب عليكم عمله هو أن تمتنعوا عن دفع الضرائب وتشتروا بها سلاحاً أتطردوا به هؤلاء المخربين من بلادكم فقد علمنا التاريخ عبرة تسطر بماء الذهب وهي أن ما من أمة نلت حريتها إلا بعد أن خضبت الأرض بالدماء.

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وعندما انتهين نجيب من قراءة البلاغ نظر إلى المحقق غير هياب ولا وكل وقال: هذا بلاغ من بلاغات أيها المحقق؟

وظن الأعضاء أن نجيب يريد أن يتنصل من تبعة ما أسند إليه ويأخذ في المدافعة عن نفسه ولما لم يتحقق ظنهم أخذ الواحد منهم ينظر إلى الآخر مستكبراً هذه الجسارة فأدرك نجيب بفراسته ما تكنه ضمائرهم وقال بأعلى صوته:

لا تستغربوا أيها الأعضاء لهجتي ولا يأخذنكم العجب من جسارتي أن تنزلوا الموت بي كما أنزلتموه بغيري فنعم الموت! أو بئست الحياة حياة الذل والخنوع من غير عرض ولا شرف ولا مال. حياة تهتك فيها الأعراض وتنهب الأموال وتسلب الأرواح. نحن العرب مسلمين ومسيحيين يد واحدة وقلب واحد عليكم أيها المفسدون الذين يتظاهرون بالإسلام والاسلام براء منهم. غداً سوف تنفذون فينا حكم الاعدام الذي سيصدره رئيسكم الطاغية وبعد غد سترون أبناءنا واخواننا ونساءنا قائمين للأخذ بثأرنا والانتقام من قتلتنا. بها غد ستسمعونهم ينادون ويصرخون: النار ولا العار! النار ولا العار! نعم...

وظن نجيب نفسه خطيباً في أحد المجالس فاشتد حماسه وأراد استطراد

خطابـه غـير أن الأعضـاء أشـاروا إلى أحـد الجنـود بإسـكاته وأمـروا بأخـذه مـع رفيقـه إلى السـجن.

فسـار سـعيد بـاش ونجيـب وقـد فكـت قيودهـا والجنـود بسـلاحهم محيطـة بهـما وهـما ينشـدان بصـوت جميـل مهيـج النشـيد الوطنـي:

نحن خواضو غمار الحرب كشـافو المحن

ما لنا غير اكتسـاب النصر أو نبس الكفن

* * *

يـا ضـلال الأولى لم يكونـوا الفدى

إن نمـت نحـن فلتحـي أوطاننـا

* * *

إلى أن وصـلا بعـد سـير شـاق السـجن حيـث وضعـا ريثـما يصـدر جـمال باشـا حكمـه فيهـا.

السـجن في بـيروت وهـو سرب ضيـق تنبعـث منـه الرطوبـة ولا تتعهـده الشـمس إلا بضعـة عـشر دقيقـة في النهـار، منافـذه صغـيرة مشـبكة بقضبـان حديديـة كسـاها الصـدأ وفي بعـض زوايـاه مقاعـد خشـبية سـمراء تقـادم عهدهـا، دخلـه سـعيد بـك ونجيـب بعـد سـير طويـل عبـث بشـيخوخة الأول وفـتّ في سـاعد الثـاني. دخـلاه بعـد أن اسـتلمهما السـجان وقـد جـولا في جوانبـه عيونهـما فـإذا بهـما يلمحـان تلـك المقاعـد التـي نخرهـا السـوس فارتميـا عليهـا جثـة بـلا حـراك وأنـا إلى أن عـاد إليهـما بعـض رشـدهما وقـد كاد الليـل يـودع النهـار. وإن نجيـب ليجـول نظـره في جوانـب السـجن وتمـر

في مخيلتـه «أديـل» وتتغلغـل في عروقـه الشـجاعة ويسـتكبر إقـدام جـمال عـلى التفرقـة بينـه وبـين أديـل حبيبتـه، ويـأبى أن يمـد عنقـه تحـت سـكين ذلـك الطاغيـة كخـروف يسـاق باختيـاره إلى الذبـح، ثـم ينعـم نظـره في إحـدى النوافـذ ذلـك السـجن ويسـتنهز فرصـة تسـلط النـوم عـلى السـجان، ويثـب عـلى إحـدى تلـك النوافـذ ويـشرع في معالجتهـا. وبأيـدٍ حديديـة يـسري في عروقهـا الشـجاعة العربيـة جعـل يطـوي قضبانهـا المكسـوة بالصـدأ الواحـد بعـد الآخـر ثـم انقلـب نحـو سـعيد بـك وكان قـد أسـلمه الغـم لسـلطان النـوم لأن التعـب والهـم قـد عبثـا بشـيخوخته فقـال لـه همسـا: انهـض يـا سـيدي فقـد مهـدت لـك ولي طريـق الفـرار. انهـض قبـل أن يـأتي نصـف الليـل ويصـدر حكـم جـمال باشـا بتنفيـذ حكـم الإعـدام فينـا.. إن دم شـهدائنا المهـدور في هـذا السـجن يسـتصرخنا للأخـذ بالثـأر، فمـن العـار أن يمـوت هـؤلاء فـداء عـن أمـوات.

واشـتمل فـؤاد سـعيد بـك إذ ذاك حماسـاً وإقداماً كأنـه لم يكـن ذلـك الشـيخ الـذي رأيتـه منـذ حـين وقـد أنهكـت قـواه شـقَّة السـفر وسـوء المعاملـة ووثـب مـن مكانـه كالنمـر، فتسـلق نجيـب النافـذة وسـعيد بـك عـلى أثـره، ومـا هـي إلا لحظـة حتـى أصبحـا خـارج السـجن يسـلكان طريقـاً تـؤدي بهـما إلى البقـاع؛ فحـوران، فبريـة سـيناء، فمـصر.

الليـل حالـك يضـل السـابل موضـع قدميـه، والطقـس بـارد خلـع عـلى الطبيعـة حلـة مـن الوحشـة جافـة جافيـة وقـد دقـت السـاعة في بـيروت الثانيـة بعـد نصـف الليـل، فـإذا بثلاثـة أشـخاص ومعهـم شرذمـة مـن رجـال الشرطـة يقرعـون بـاب السـجن، فاسـتقبلهم حارسـه فـإذا هـم رسـل جـمال

باشـا يحملـون أمـر تنفيـذ حكـم الإعـدام بسـعيد بـك ونجيـب.

دخـل هـؤلاء السـجن يقدمهـم رجـال الشرطـة، وجولـوا أنظارهـم في جوانبـه، ومـا أعظـم مـا كانـت دهشـتهم حـين لم يجـدوا فيـه أحـداً ثـم حانـت التفاتـة مـن أحدهـم عـلى إحـدى النوافـذ فوجـد قضبانهـا ملتويـة، وحـول أنظـار مـن معـه إليهـا وإذا بينهـا فرجـة كبـيرة فايقنـوا أن المحكـوم عليهـما لاذا بالفـرار.

فأمـر كبـير الشرطـة للحـال بإلقـاء القبـض عـلى حـارس السـجن وأبـرق إلى مركـز القيـادة العامـة مبينـاً حقيقـة الواقـع فأمـرت هـذه إذ ذاك بإعطـاء الأوامـر السريعـة إلى مديـر الأمـن العـام العسـكري في الحـاضرة لبـثّ العيون والجواسـيس وإصـدار الأوامـر لدوائـر الشرطـة للحـاق بالفاريـن وايقـاف المـارة في الطـرق العموميـة والوقـوف عـلى حقيقـة أمـر كل منهـم.

جـرى كل ذلـك والليـل بهيـم والظـلام مـرخٍ سـدوله وقـد تجـاوز سـعيد بـك ونجيـب حـدود المدينـة قبـل أن يتلقـى جـمال باشـا خـبر فرارهـما.

وكان صبـاح لم يـرَ أهـالي بـيروت صباحـاً مثلـه حـين أفاقـوا مـن نومهـم وخرجـوا مـن بيوتهـم للسـعي وراء أشـغالهم ورأوا منظـر المدينـة متنكـراً في عيونهـم ورجـال الأمـن منبثـين في أنحـاء المدينـة وشـوارعها وقـد بـدت عـلى وجوههـم علامـات الخـوف والحـيرة، ومـا كاد يتعـالى النهـار حتـى أخـذ النـاس يتناقلـون همسـاً في الآذان نبـأ فـرار مجرمـين سياسـيين حكـم عليهـا بالإعـدام، فظهـرت حقيقـة هـذا التنكـر وبـان الصبـح لـذي عينـين.

الفصل الخامس عشر

بعد عامين

•••

عندما شُهرت الحرب العمومية؛ خرجت من فيهم عاهل الألمان هذه الجملة: الويل للمغلوب.

وعندما أخذ سياسيو العالم وغيرهم يتكهنون عن مدة الحرب ومتى تنتهي قال اللورد كتنشتر وزير حربية انكلترا وقتئذ: سأخدم هذه الحرب ثلاث سنين وبعدها أستقيل.

العبارة الأولى حملت الدول على المجازفة بالمال والأرواح للحصول على النصر والغلبة، والثانية قد حققها الواقع ولم يبق ريب فيه بعد نظر قائلها.

نطق غليوم بذلك الحكم فخشي أن يجازى به أن هو غُلب فأخذت جيوشه وقواده تستميت في سبيل احراز النصر، ولما ضاقت به وبهم السبل ورأى أن ايطاليا حليفته قد انحازت إلى صفوف أعدائه مما زاد في طنبور فلقه نغمة أخذ يعمل على جلب روسيا تلك الدولة العظيمة إليه واخراجها من صفوف المتحالفين بأية طريقة كانت.

روسيا تلك الدولة العظيمة التي اجتازت بجيوشها البواسل جبال الكربات وصدت عنها غارات أعظم قوة مستحدثة وقوية في هذه الحرب والقت الرعب في قلوب الألمان والنمساويين وجعلتهم يفرون أمامها كالأرانب، روسيا التي وقفت في أول الحرب على أبواب «بوزن» مفتاح برلين، وبرزمسيل مفتاح «فينا» والتي ألهت القوى الالمانية

الهائلة عن ابتلاع باريس الجميلة.. يحل فيها التخاذل وتشب نار الثورة في بلادها، وتتمرد عساكرها وتمسك عن القتال ويقف لنين بجيشه البولشفيكي وقفته المشهورة في «برست لتوفسك» ويعقد تلك المخالفة الشائنة بشرف تلك الدولة العظيمة. لعل لها عذراً ونحن تلوم، بل لعل مبادئ البلشفية ومعناها الأكثرية التي هي خلاصة المبادئ الاشتراكية والتي ربما تكون الدواء الشافي لأمراض هذه الدولة الاجتماعية (سيما إذا كان فيما تعلقه الصحف عنها شيء من الغلو) هي التي حملت روسيا على هذا الانقلاب الفجائي المخيف.

خرجت روسيا من صفوف الحلفاء وانقسمت أحزاباً أخذت تقارع بعضها فهلعت قلوب الناس في العالم وعمّ الويل واشتدت وطأة الغلاء والجوع، واستفحلت أخطار الأمراض والأوبئة وتشاءم الجميع بأن لا نهاية لهذه الحرب الضروس، ولكن سرعان ما خابت ظنونهم فإن الولايات المتحدة بزعامة الدكتور ولسن، عندما رأت مساعيها في سبيل استتباب الأمن والسلام النهائيين. في العالم، وايقاف المانيا بمساعي قداسة بابا رومية عن استمرار القتال قد ذهبت أدراج الرياح ورأت أن المانيا تزداد إصراراً على مداومة الحرب والحلفاء يعاملونها بالمثل، وأن القوة الأوتوقراطية إذا انتصرت المانيا ستقضي على مبادئ الديموقراطية المحررة البشر والمقومة عدل الحكومات، امتشقت الحسام واجتازت بعددها وعددها مياه الأتلانتيك ووقفت إلى صفوف المتحالفين في فرنسا، فكانت بدلاً من روسيا المتخاذلة أمس وجعلت الألمان يوجسون خيفة من دخول هذه الدولة العظيمة في ميادين القتال.

دخلت الولايات المتحدة الحرب وامتشقت لها سيفها وهي تصرخ وتنادي بملء فيها: لا ضم ولا غرامة. ليسد السلام النهائي. لتقلع الشجرة التي فتن بها آدم، ولتقتل الحية التي أطاعتها حواء، ولتسقط القوة التي ألهها قايين، ولتتغلب الروح الانسانية التي هي جزء من روح الله على شجرة آدم وحية حواء، وقوة قايين!. لتكن الأسبقية لمبادئ الحقوق العمومية على المصالح الافرادية! لينتخب البشر خطة حياتهم وخطة حكمهم! لنقضِ على الحرب عدو الإنسانية! لنؤلف وعصبة الأمم... ولكن من يدري أن أهل الجيل الآتي هم (زبائن) ولسن وليس أهل هذا الجيل كما قال ولسن نفسه فيما بعد، ومن يدري البشر الذين عبثوا بوصايا الله العشر لا يعبثون بهذه المبادئ أيضاً.

لنترك العالم على تلك الحال الآن ولنعد إلى فلسطين صورة العالم المصغرة وقتئذ.

في تلك البقعة المقدسة ابذعرَّت الجنود العثمانية لتقيها حملات الانكليز وحلفاءهم، وقد حاول الالمان والاتراك أن تكون لهم جسراً للمرور عنه إلى دار الفراعنة، فجيشوا فيها الجيوش، وحفروا الخنادق، واعدوا العدد، وهجموا على ترعة السويس الهجمة اثر الهجمة فلم ينالوا إلا الفشل والخيبة.

فتسرب الضمن إلى الجيش وتشاءمت الحكومة سوء المصير سيما على اثر دخول الولايات المتحدة الحرب وتقهقر الالمان وحلفاؤهم تحت قيادة القائد لودندرف أمام جيوش المرشال فوش في ميادين الرب الغربية.

ومـما زاد الدولـة قلقـاً وتخوفـاً والاتفـاق الـذي عقـده الكولونيـل السرهـنري مكماهـون المعتمـد البريطـاني مـع الشريـف حسـين الهاشـمي في شـهر نيسـان سـنته ١٩١٦.

وكان الضيـق يومئـذٍ قـد بلـغ أشـده إذ أن اللـيرة العثمانيـة (البنكنـوت) نزلـت قيمتهـا إلى خمسـة عـشر غرشـاً وارتفعـت أسـعار الضروريـات ونبضـت مـوارد الـرزق ولم يبـق في البـلاد إلا الشـيوخ والأطفـال والنسـاء مـن سـلموا مـن المـرض والجـوع والنفـي، والنسـاء هنـا عـلى خـلاف النسـاء المترجـلات في الغـرب، لا يقـدرون أن ينـبنَ عـن الرجـال في تحصيـل الـرزق، فكـن عندمـا يتـوفى الليـل النهـار يجتمعـن مـع أطفالهـن وشـيوخهن، وفي هـذه الخطـوة يأخـذون كبنـي اسرائيـل في مـصر ينشـدون يـوم الخـلاص ويحلمـون أحلامـاً ذهبيـة بقـرب تحريـر البـلاد مـن الاسـتعباد.

هـذا فضـلاً عـما حـلّ بأهـالي غـزة ويافـا مـن المصائـب والويـلات عـلى اثـر صـدور بالأمـر بوجـوب مهاجرتهـم وتفريقهـم عـلى بـلاد شـتي في الاناضـول وسـوريا وفلسـطين بحجـة أن العـدو مزمـع عـلى مهاجمـة ذلـك البلديـن.

وقـد دار عـلى الألسـنة يومئـذ أن الانكليـز مـع حلفائهـم سـددوا العزيمـة عـلى مهاجمـة فلسـطين فاسـتبشر الأهلـون خـيراً وباتـوا يرقبـون يـوم الخـلاص بفـارغ الصـبر لأنهـم سـئموا تلـك المعيشـة ولم يعـد في وسـعهم احتمالهـا.

وبالحقيقـة فـإن البريطانيـين هاجمـوا في ٦ مـارس ١٩١٧ الأتـراك في جنـوبي فلسـطين فاكرهوهـم عـلى التقهقـر مـن خـط خـان يونـس والشـلال إلى خـط غـزة وتـل الشريعـة. وفي ٢٦ و٢٧ منـه دارت معركـة شـديدة في ضواحـي

غـزة لم يظفـر فيهـا الجيـش المهاجـم بطائـل وفي ١٧ و١٨ و١٩ أبريـل نشـبت معركـة أخـرى حـول غـزة أسـفرت عـن تقـدم البريطانيـين واسـتيلائهم عـلى تـل شمشـون وهضـاب جبـال المنطـار الجنوبيـة.

وفي أوائـل شـهر يونيـو تعـين الجـنرال الـسر ادمنـد اللنبـي قائـد الجيـش البريطـاني الأول في فرنسـا خلفـاً للجـنرال ارشـبلد فـري قائـد الجيـوش البريطانيـة في مـصر وفلسـطين.

وكان لتعيـين هـذا القائـد الكبـير تأثـير لـدى رؤسـاء الجيـش العثـماني لمـا هـو مشـهور عنـه مـن الدهـاء والدربـة فأخـذت الحكومـة وقتئـذ تلقـي القبـض عـلى النابهـين مـن رعاياهـا والمتكملـين باللغـات الأجنبيـة لاعتقادهـا بأنهـم يرغبـون في احتـلال الانكليـز البـلاد، وتزجهـم في أعـماق السـجون ثـم تبعدهـم إلى الشـام فـبر الأناضـول، وهكـذا عملـت ببعـض المثريـن والتجـار بدعـوى أنهـم يرفضـون المعاملـة بالبنكنـوط العثـماني، تلـك هـي دعـوى الذئـب عـلى الخـروف والحقيقـة أنهـا عندمـا رأت نفـسي عاجـزة عـن الانتقـام مـن عدوهـا الخارجـي عمـدت إلى الثـأر مـن رعاياهـا الأبريـاء كالضبـاع تـأكل أولادهـا. فهلعـت قلـوب الأهلـين وتشـاءموا بسـوء المصـير وأيقنـوا أنهـم سـيلاقون مـن جـمال باشـا مـا لاقـاه سـكان أورشـليم مـن الملـك نبوخـذ مـصر يـوم قهـر ملكهـا ونقـل سـكانها إلى بابـل.

وكان في عـداد المقبـوض عليهـم يومئـذ أربـع نسـاء مـع إحداهـن طفلـة صغـيرة وثلاثـة رجـال وقـد وضعـوا في غرفتـين متجاورتـين.

النسـاء الأربـع هـن أديـل وسـلوى وسـعاد ومريـم وطفلتهـا مـن زوجهـا أمـا جنينهـا مـن طريـق السـفاح (مـن كامـل) فكانـت قـد وضعتـه طفـلاً ذكـراً

منذ عام في بيت السيدتين أديل وسلوى قبل مدة الوضع القانونية فولد مع الفجر ومات عند طلوع الشمس مختفياً كالظل ومبقياً يد الموت قابضة على قلب أمه!.. والرجال الثلاثة هم موسى وكامل والضابط فواد.

قبض على أديل وسلوى لأن الحكومة عرفت بعد إجراء التحقيق أن الأولى هي زوجة نجيب والثانية أخت سعيد بك المحكوم عليها بالإعدام والفارين من سجن بيروت والذين يقاتلان الآن في صفوف الأعداء، وعلى مريم لأنها تساكنهما، وعلى سعاد لأنها ابنة رجل، اتهم برفضه المعاملة بالبنكنوت العثماني.

وقبض على موسى بحجة أنه يرفض قبول البنقنوط العثماني كما مرّ بنا، وعلى كامل لأنه عازم على الاقتران بمريم المجرمة بمساكنتها أديل وسلوى، وعلى الضابط فواد لأنه يحب سعاد ويختلف إلى بيتها.

وكانت غرفة الرجال ملاصقة لغرفة النساء لا يفصل بينهما إلا جدار رقيق الفلين بحيث إذا تكلم الواحد في إحداهما سمع صوتها في الأخرى.

جلس كل من النساء بقرنة وكذلك الرجال، أما أديل فكانت تسير في الغرفة بخطوات مشوشة ذهاباً وإياباً وتنظر بين اللحظة والأخرى من كوة صغيرة مشبكة بقضبان حديدية كان يدخل منها نور النهار وضوء النجوم لتنير تلك الغرفة المظلمة.

وفي ذلك الوقت كان صوت، دوي عميق يصل إلى آذان الناس في الخارج وتتعهد غرف المسجونين من حين إلى آخر.

ذلـك الـدوي هـو أزيـز القنابـل وانفجـار المفرقعـات الخارجـة مـن أفـواه مدافـع الجيـوش المهاجمـة والمدافعـة البريـة والهوائيـة.

الجيـوش المهاجمـة بقيـادة الجـنرال اللنبـي اسـتولت عـلى غـزة بعـد قتـال عنيـف، وجيـش الـترك المدافـع انجـلى عـن تـلاش المدينـة جـلاءً تامـاً.

الجيـش المدافـع يفـر كالأرانـب أمـام الجيـوش المهاجمـة بعدَدهـا والتـي لا يحـصي عدَدُهـا.

مـن الجنـوب ومـن الغـرب زحفـت العسـاكر فمـلأت السـهل والـواد وجابـت السـهول وقطعـت الوديـان، وتسـلقت الجبـال الشـاهقة كـما يتسـلق الجـراد الأشجار.

سـقطت قـوة الجيـش المُدافـع المعنويـة، لم تعـد تنفعـه خنادقـه، تحطمـت طياراتـه، ضمنـت عزائمـه احتـار قـواده الألمـان والأتـراك في إعـادة النظـام إليـه. منـه مـن وقـع أسـيراً ومنـه مـن لاذ بالفـرار.

جنـود ذات وجـوه مـع معبسـة مغـبرّة، ملكهـا الجـوع ونـال منهـا الظـمأ، ركبـت أنعالهـا عامـة يومهـا وأخـذ منهـا الجهـد، وأعياهـا التعـب، وأنهكهـا طـول الشـقة، جمعـت في وجوههـا المظللـة بطـلاء مـن العـرق البـارد والغبـار بـين ذل الانكسـار وذل التعـب وقـد نـاء كل منهـا تحـت رزمـة احتقبهـا مملـوءة بحاجـه ولباناتـه العسـكرية ظافريـن في عودتهـم مـن الغنيمـة بالفـرار.

كان الأهلـون في فلسـطين يشـاهدون هـذه الجنـود السـاكتة المتكلمـة

العابسة بقلوب هامة خشية من أن يعمدوا إلى أعمال النهب والسلب والتخريب في البلاد التي يمرون بها شأن الجيوش المنكسرة في كل زمان ومكان.

كان تخوف الاهلين هذا في غير موضعه لأن الجوع والخوف ومحبة الحرص على الحياة ألهى هؤلاء الجنود عن الإقدام على مثل هذه الأعمال.

لندع جيوش الإنكليز تطارد الأتراك في ميادين فلسطين ولنعد إلى سجنائنا.

الجو ماطر والطقس بارد والوقت ليلي والسجناء في سجنهم يمثلون رواية كلهم أبطالها.

في ليلة حادي عشر من شهر كانون أول سنة ١٩١٧ وقفت أديل كعادتها أمام الكوة وقد مرت في مخيلتها حوادث الماضي منذ فارقها نجيب حتى هذه الساعة، فبكت وفكرت فيما يولده لها المستقبل فهلع قلبها وارتمت على الأرض تهذي وتقول: رباه ما هو ذنب امرأة لم يكفر عنها كل ما مر بها من الشقاء، حتى توقعها في شقاء أعظم؟. رباه! ما هذه الكاس المفعمة بالخل والعلقم؟ سوف أشربها متجلدة لأن نصيبي من الحياة التعاسة. ولكن هذه الشعلة المقدسة التي أوقدتها السماء بين رماد صدري. هذه المحبة غير المتناهية المتولدة في أحضان اللانهاية التي أشعر بها نحو نجيب. هذه المحبة وما وراؤها من الحرية المعنوية والاستقلال الشخصي. المنيرة صدور المظلومين والمظلومات تجعلني أن أتمرد على ظلمات السجون وأقف متشجعة

أمـام شـفار الحادثـات متلقيـة إياهـا بصـدري وظهـري بالصـبر والثبـات، عندهـا

إمـا أن أمـوت شـهيدة متلـذذة بعذوبـة ثبـات النفـس أمـام المصائـب والمصاعـب وإمـا أن أعيـش حـرة كالأبطـال في ظـل اللـه ونجيـب وبـلادي فلسـطين. بـلادي، يـا بـلادي الحبيبـة، إن كنـت أحبـس لأجـل حبيـب يحبـك فـماي أحـلى المـوت في سـبيلك. كـم أرهقـك الظالمـون بظلمهـم وطمـع فيـك الطامعـون الجاهلـون، ليتقتلـوا عربيتـك ويتركـوا أبنـاءك، ولكـن سـاء فـال هـذا القـوم! إن لـك يـا فلسـطين مـن أبنائـك أقلامـاً في السـيوف ومـداداً هـو الـدم وقرطاسـاً هـو الجثـث، فرويـد الطامعـين. بشـعب ينيمونـه عـلى مضاجـع الآمـال...

ومـا انتهـت أديـل مـن كلامهـا حتـى سـمع في غرفـة السـجناء الثانيـة صـوت مـوسى التاجـر فـإذا هـو يحلـم ويقـول:

ثمانمائـة وسـبعمائة ألـف وخمسـمائة، ألـف وخمسـمائة، وثلاثمائـة، ألـف وثمانمائـة لـيرة ذهبـاً عثمانيـاً أخذوهـا منـي وعوضـوني عنهـا بألـف وثمانمائـة لـيرة بنكنـوت عثـماني سـهر اللـيرة عـشرة قـروش، مائـة وثمانـون لـيرة عوضـاً عـن ألـف وثمانمائـة: وامصيبتـاه!

ثـم عـلا في تلـك الغرفـة صـوت آخـر هـو صـوت كامـل، فـإذا بـه يقـول: حتـى في المنـام فضـلاً عـن اليقظـة يفتكـر هـذا الرجـل في الذهـب ينـام ودوي المدافـع يقـترب منـه شـيئاً فشـيئاً، دوي يصـم الآذان ويـكاد يزعـزع أركان هـذا المـكان. يحلـم بالذهـب غـير حاسـب حسـاباً للخطـر المحيـق بمـا هـو أثمـن مـن ذهبـه.

وإن فـؤاداً عاشـق سـعاد ليقـول: دع هـذا الرجـل يـا كامـل يغـط في نومـه حالمـاً بذهبـه وفضتـه وتعـال نفكـر فيـما يـؤول إليـه أمرنـا، أنـت تسـمع دري المدافـع وأزيـز الرصـاص. الانكليـز والأتـراك يقتتلـون في النبـي صمويـل اقتتـالاً أدى بالفريقـين إلى الاقـتراب مـن بعضهـما بالسـلاح الأبيـض، والدائـرة قـد دارت عـلى الأتـراك وأظنهـم غـادروا مواقعهـم بخسـائر جسـيمة فـماذا عسـاك فاعـل؟

كامـل - إذا كان الأمـر كـما تقـول فـما علينـا إلا أن نترقـب دخـول الفاتحـين القـدس غـداً أو بعـد غـد وبذلـك تنفـرج الأزمـة متـى تـرى عينـاي بنـي التامـين يجولـون في شـوارع القـدس؟ متـى أرى العلـم البريطـاني يخفـق في سـماء فلسـطين؟ متـى يتـم ذلـك يـا تـرى؟ متـى يجـيء يـوم الخـلاص؟ أن أجدادنـا منـذ مائـة سـنة كانـوا ينتظـرون مجـيء بريطانيـا العظمـى الدولـة القويـة العادلـة إلى هـذه البـلاد. غـداً وبعـد غـد سـتحقق أحـلام الآبـاء والأجـداد نعـم غـداً..

فـواد – ولكننـا عـرب في هـذه البـلاد لا نقبـل بغـير العـرب دولـة إن أرواح رفاقـي، أرواح أخـوتي الشـهداء، أرواح الذيـن علقـوا بـين الأرض والسـماء في بـيروت والشـام تهمـس في أذني الآن طالبـة أن لا يهـدم الخلـف مـا بنـاه السـلف.

وتسـمع سـلوى في الغرفـة الثانيـة كلام فـؤاد، وتلتفـت نحـو أديـل وتقـول والتأثـر بـادٍ عـلى وجههـا: هـل سـمعت حديـث كامـل وفـؤاد في الغرفـة المجـاورة يـا أديـل؟ إنهـما قـد أخطئـا المرمـى لم يصيبـا كبـد الحقيقـة، ذاك يريـد أن يـرى انكلـترا حاكمـة لبلادنـا، والثـاني يترقـب أن يأتيـه مـن وراء

عـرب الجزيـرة نفعـاً فيـما لـو حكمـوا بلادنـا، إنهـا لجهالـة لا يـرضى بهـا العاقلـون مـن أبنـاء البـلاد، إن فرنسـا الحريـة بـأن تحكـم بلادنـا وعـلى فرنسـا مهـد الحريـة والمدنيـة تتوقـف سـعادة سـوريا وفلسـطين، وهـل نـرضى بسـوى علمهـا المثلـث الألـوان علـماً يخفـق فـوق رؤوسـنا كـما تخفـق قلوبنـا بحبهـا نحـن معـاشر السـوريين؟

ومـا كادت سـلوى تلفـظ الكلمـة الأخـيرة حتـى شرع مـوسى التاجـر يتكلـم في نومـه قائـلاً: ثمانمائـة وسـبعمائة ألـف وخمسـمائة، وثلاثمائـة، ألـف وثمانمائـة، أخذوهـا منـي وعوضـوني عنهـا بألـف وخمسـمائة لـيرة بنقنـوط عثـماني سـعر اللـيرة عـشرة قـروش ١٨٠ بـدلاً مـن ١٨٠٠، وامصيبتـاه! واتعبـاه!

أمـا أديـل فانتصبـت إذ ذاك متهيجـة ورفعـت ذراعيهـا قائلـة: مـا أعظـم نكبتيـك بأبنائـك يـا سـوريا! إن أبنـاءك يعيشـون فيـك ولكـن بأجسـامهم، وتحبينهـم ويحبـون غـيرك. مـا أمـر مصيبتـك بهـؤلاء الأبنـاء يـا فلسـطين! إنهـم متيمـون برفـرفي البرنيطـة، فمنهـم مـن تيمتـه انكلـترا، ومنهـم مـن فتنتـه فرنسـا ومنهـم مـن يحلـم بجزيـرة العـرب، وأخـر يعـد نقـود، وأموالـه، يـا سـوريا يـا بابـل القـرن العشريـن لسـت أنـت للإنكليـز، ولا للفرنسـويين ولا لعـرب الجزيـرة. إنـك يـا سـوريا لأبنـاء سـوريا، لي وأنـت يـا مـن جبلـت مـن ترابهـا وتغذيتـه مـن لبنهـا وارتويـت مـن مائهـا وتغذيـت بهوائهـا وجاهـدت في سـبيل سـلامتها نحـن مـا نبذنـا الدولـة العثمانيـة إلا لأنهـا نبـذت حريتنـا، ومـا اندفعنـا لمحاربتهـا إلا لأنهـا اندفعـت في اسـتعبادنا، ومـا أهرقـت دمـاء شـهدائنا الزكيـة إلا لإنقـاذ سـوريا وتحريرهـا

مـن كل عبوديـة واسـتقلالها بـكل معنـى الحريـة، فكيـف تجتمـع هـذه النتيجـة مـع مـا يتمنـاه هـؤلاء السـارحة نفوسـهم في أحيـاء لنـدن وباريـس والجزيـرة العربيـة. أيهـا السـجناء أتوجـد الحيـاة فينـا ونحيـى عبيـداً، ونحيـى ونبقـى أمواتـاً، وتـشرق علينـا شـمس اللـه لنمـشي في نورهـا عميانـاً. ويـسري دم أجدادنـا ونعيـش أذلاء خبثـاء. أنـا أعجـب بإنكلـترا واحترمهـا واعـترف بجميـل فرنسـا وأحـب العـرب ولكنـي سـوري أحـب سـوريا وأريـد حريـة سـورية لسـوريا واسـتقلالاً فلسـطينياً لفلسـطين، ولكـن «عـسى أن نكـره شـيئاً وهـو خـير لنـا» إننـا في حاجـة إلى أصدقـاء أوفيـاء مـن الانكليـز والفرنسـويين يسـاعدونا عـلى الرقـي والاسـتقلال بوصايـة محـدودة خفيفـة لا يشـعر بوطأتهـا العـربي الشـديد التأثـر. إن لنـا خطيئـات وتقصـيرات يجـب أن نسـعى في اصلاحهـا يجـب علينـا أن نتعلـم مـن مصائبنـا لنسـتفيد في المسـتقبل وإلا عشـنا عبيـد. إني أتـوق إلى حريـة أمتـي واعتلائهـا وأحـب الشـعبين الانكليـزي والفرنسـاوي ولا خـوف عـلى بـلادي مـن حكومتيهـما إذا كنـا مـن القـوم العاقلـين أن العـرب في حاجـة إلى تكافـل اجتماعـي واعتـماد عـلى الـذات وتعـاون وحميـة يسـتعينون بهـا عـلى حياتهـم القوميـة الجديـدة. أيـن عينـاك يـا نجيـب تنظـران وأيـن أذنـاك تسـمعان؟ لقـد فرقتنـا العاصفـة عـلى وجـه هـذا البحـر الهائـج، فهـل تجمعنـا الأمـواج عـلى الشـاطئ الهـادئ؟ هـل تغـير قـل يـا نجيـب كـما يتغـير الزمـن وتتحـول الفصـول؟ هـل إن عاطفتـك النقيـة نحـوي كانـت حلـماً رسـمته يـد الكـرى أو محتـه اليقظـة؟ هـل تصغـي لتنهـدات المتصاعـدة بالتوجـع والغصـات؟ لقـد متنـا وسـوف نحيـى كحبـة الحنـه ولكـن هـذا الشـعب في حاجـة إلى اصـلاح عـام يتنـاول جميـع طبقاتـه اصلاحـاً يتنـاول نفوسـنا وأجسـادنا

عقولنـا وأخلاقنـا، آدابنـا وعوائدنـا، أفعالنـا وأقوالنـا مشـاريعنا وأعمالنـا، وعندهـا نسـير إلى الحيـاة، ونحيـى حيـاة شريفـة حيـاة اسـتقلال لا مـوت بعدهـا فـإلى العلـم يـا سـوريا! إلى العلـم يـا فلسـطين افعلـوا أيهـا السـوريون كل شيء واعملـوا أيهـا الفلسـطينيون مـا شـئتم والزمـان كفيـل بإصـلاح كل شيء، كل خطـاء يأتيـه اليـوم وكـم مـن خطـاء يمكـن اصلاحـه غـداً! أمـا خطـأ تأسـيس حكومـة يكـون الضعـف والوهـن والفـوضى في أساسـها كجرثومـة مـوت فهـو أمـر لا يمكـن اصلاحـه إلا بقلـب تلـك الحكومـة، وهـذا مـا لا أريـد الاسـتهداف لـه في المسـتقبل! هـل تصغـي لحديثـي يـا نجيـب كـما تصغـي الشـواطئ لحديـث الأمـواج؟.. ثـم توقفـت أديـل عـن الـكلام والغصـات تخنقهـا وقـد اتـكأت عـلى جـدار الغرفـة منهوكـة القـوى، وبعـد سـكون عميـق سـمعت طفلـة مريـم تـئن فدنـت منهـا فـإذا هـي ملقـاة عـلى ذراع والدتهـا تنظـر إليهـا نظـر الاسـتغاثة بعينـين ذابلتـين وتخـرج مـن بـين شـفتيها الجافتـين بصـوت تـكاد تنتزعـه منهـا انتزاعـاً لفظـة! ماما جوعـان!

أمـا مريـم فكانـت تحـدق بطفلتهـا وعيناهـا تهيـلان الدمـع السـخين وتقـول لهـا والدمـع يقطـع أحشـاءها: صـبراً يـا بنتـاه عندمـا يـأتي الفجـر يبعـث اللـه لنـا بالخبـز فنـأكل جميعـاً.

أمـا أديـل فهالهـا هـذا المنظـر، ولم تتمالـك مـن امسـاك دموعهـا، فأخـذت الطفلـة مـن بـين ذراعـي أمهـا وضمتهـا إلى صدرهـا.

وكانـت الطفلـة جامـدة لا تتحـرك فأنعمـت أديـل نظرهـا فيهـا فـاذا هـي جثـة هامـدة.

مات الطفلة جوعا!

شقت مريم جيبها وصاحت باكية بكاء الثكلى ولدها، اما أديل فافترشت معطفها على الأرض ووضعت عليه الطفلة، وجثت تصلي.

هبَّ السجناء في الغرفة لهذا الصياح المرعب. تساءلوا عن الخبر ودوا الخروج فلم يتمكنوا لأن الأبواب كانت مغلقة.

في تلات الدقيقة سُمع من وراء جدران السجن أصوات ضئيلة آتية من الخارج. صياح من كل جهة.. طلقات نارية، ومدافع تدوي في الفضاء وأهازيج وتهاليل!

أصوات تصيح في الخارج وتقول: جنود الحلفاء ملأت المدينة الانكليز! الفرنسويون! الطليان هو ذا الجنود الاسترالية؟ عساكر الهند! العرب! القائد اللنبي دوخ البلاد!.. دخل القدس!..

صرخ السجناء، ضحكوا، كأن الجنون من عقولهم.

كُسرت أبواب السجن فجأة، فإذا بضابطين شارعين سيفين فوق جواديهما يصرخان قائلين: أخرجوا أيها السجناء! لقد أتانا الخلاص!

خرج السجناء ما عدا مريم لنظروا هذين الملاكين بسيفيهما الناريين وقد ترجلا عن جواديهما، وما هي إلا لحظة حتى كان موقف مهيب يولد الخشوع ويدعو إلى التأمل.

صرخت أديل: نجيب! حبيبي نجيب! وصاحت سلوى: سعيد! أخي سعيد!.

وتفرس كل من الضابطين في وجه كل من المرأتين فلم تخف على

الواحـد زوجتـه وعـلى الآخـر أختـه، فضـم الـزوج زوجتـه، والأخ اختـه في موقـف ظللتـه السـكينة المهيبـة، وعلـم الأمـل بعـد اليـأس، والحيـاة بعـد المـوت! وتجلـت فيـه نبالـة الحـب الطاهـر.

الضابطـان هـما نجيـب زوج أديـل وسـعيد بـك شـقيق سـلوى، فـرًا مـن سـجن عاليـة كـما مـر بنـا إلى مـصر فوصلاهـا بعـد مشـقات وأهـوال. حيـث التحقـا بالحملـة المصريـة إلى أن قيـض اللـه لتلـك الحملـة بمهاجمـة فلسـطين بقيـادة الفيلـد مارشـال الفيكونـت اللنبـي، وتدويخهـا، وجـلاء الـترك عنهـا. فدخـل نجيـب وسـعيد مـع مـن دخلـوا مـن الجيـوش المهاجمـة بعـد أن أبليـا البـلاء الحسـن في مواقـع كثـيرة مـع جيـوش الأعـداء وكان أول همهـما عنـد دخولهـما القـدس السـؤال عـن مواقـع السـجن، والافـراج عـن المسـجونين لأن مـن ذاق مـرارة السـجن، واسـتمرأ لـذة الحريـة لا يضـن بهـا متـى قـدر عـلى مـن يتعذبـون في مظـالم السـجن سـيما الأبريـاء منهـم. وهكـذا فعـلا حيـث رأيتهـما منـذ حـين يحطـمان أبـواب السـجن ويخرجـان منـه السـجناء واحـداً واحـداً حتـى كان مـا كان مـن أمـر الواحـد مـع زوجتـه والآخـر مـع أختـه.

ولمـا عـاد إلى المتعانقـين صحوهـم، أقبلـت أديـل عـلى سـعيد بـك منقـذ شرفهـا وحياتهـا وعانقتـه مقبلـة يـده ودمـوع الشـكر تتسـاقط مـن عينيهـا، أمـا سـعيد بـك فانحنـى عليهـا انحنـاء الوالـد عـلى ولـده، وقـد كلـل رأسـه شـعر الشـيخوخة المهيـب وألقـى فـوق رأسـها قبلـة حـارة لم يعتـم أن رطبهـا بدمـوع بـاردة همـت مـن عينيـه وقـال: أهنئـك يـا ابنتـي بسـلامة نجيـب!

أمـا باقـي السـجناء فقـد ألهاهـم هـذا الموقـف المؤثـر عـن فرحهـم بخـلاص

نفوسهم إلى استسلامهم لتأثيرات هذا المشهد.

وعرف موس وابنته سعاد نجيباً فأقبلا عليه يعانقانه.

والتفت السجناء الرفقاء إلى بعضهم فلم يجدوا كاملاً ومريم، فراحوا يتفقدون غرف السجن فإذا في إحدى زوايا غرفة طفلة ملقاة على فراش الموت، وقد ضمت يداها فوق صدرها دون أن يجسر الموت على أن يعبث بجمالها الملائكي وقد أحاط بها مريم وكامل: هي تبكي بكاءً مراً، وهو يصلي جاثياً على ركبتيه ورافعاً عينيه وأفكاره إلى السماء.. فكشف للحال نجيب وسعيد بك رأسيهما إجلالاً لذلك المشهد المؤثر واحتراماً لتلك النائمة نومها الأبدي! وبعد تأمل خمس دقائق سمح بها الجميع بسكب دموعهم على وجناتهم، دنا نجيب من النائمة وكان الكاهن قد حضر وحمل الجثة بين ذراعيه وسار بها في موكب جميل بين عزم وتسبيح حتى وصلوا المقبرة في صهيون، حيث أنزلت في أعماق الحفرة، ولما فرغ حفار القبور من عمله، أقبل الكاهن وتلا فوق القبر الصلاة الأخيرة، ثم سار الجميع مريم إلى حيث كانت ساكنة مع أديل وسلوى، ليقيموا فيه الهناء بعد ذلك العزاء!

الخاتمة

•••

وما هو إلا يوم أو بعض اليوم حتى أقيمت الأفراح، واستحضر السيد موسى التاجر امرأته من حلب، لتشهد زفاف ابنتها سعاد على الضابط فؤاد ومريم على كامل واتخذ كل فريق نزلاً في المدينة المقدسة ليعيشوا بهناء

أما سعيد بك وأخته سلوى ونجيب وامرأته أديل فسكنوا معاً كعائلة واحدة كان فيها ذلك الشيخ المجاهد الجليل أباً شفوقاً إلى أن دعاه بعد أشهر كبر السن ومرض الشيخوخة إلى ملاقاة ربه الرحيم، فشيعت جنازته في موكب سار فيه الأعيان والأدباء، ورحل من هذه الدنيا تاركاً لسلوى أخاً حميماً -ورب أخ لك لم تلده أمك- هو نجيب، ولها الآن في ذلك البيت الصغير الكلمة الأولى والمقام الأول يأتمر الزوج والزوجة بأمرها كأن لم يمت أخوها البطل العفُّ الشريف ولم تفارق روحه الكبيرة ذلك الجسد الطاهر، إلا لتنقل إلى نجيب وأديل وتسكن ذانك الجسمين الطاهرين!

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان